الفصـل الثاني

الأمير عبدالقادر الجزائري

وشِعره

الأمير عبدالقادر الجزائري
وشـــعـــــره

أ - الفخر:

تعامل عبدالقادر بالشعرمع غيره مثلما تعامل به مع نفسه فقد كان الامير فارسا حقا لم يقنع بالجانب الحسي من بطولته فطلب لهاجمالها في الشعر وحلاها بالقصيد ليربط عروبته بأجداده الاوائل بأعز رباط وأقدس تراث سلاحا وأدبا .

ولذلك فكثير ما كان يردد موقف :

إذا جـــهـــلت مـــكـــان الـــشـــعـــر من شـــرف

فـــأي مـــفـــخـــرة أبـــقـــيت لـــلـــعـــرب

فحاول أن يُكسب الشعر المكانة اللائقة المحببة إلى قلبه ، وعلى الرغم من اهتزاز جانبه الفني في أكثر من موقف ، الا أن الشيء الذي يشفع للأمير فى أن يجعل من نفسه شاعرا - وإن قصر به التعبير الفني-هو قدرته على تصوير الواقع الحقيقي الذي عاشه ويعيد إلى الأذهان في الجزائر صورة عنتره وعمرو بن كلثوم وخالد بن الوليد وأضرابهم فى فترة كانت البطولة فيها في الجزائر تعاني من التزييف ويخلع عليها الحكم العثماني في أواخر أيامه حلَّة من الأبهة الجوفاء حتى إذاطالعها الغزو الاستعماري الفرنسي لم تصمد فى وجهه أكثر من أيام معدودات[١٧٦] .

وعبدالقادر بأشعاره لم يكن عنوانا على جودة الشعر في ميزان النقد الدقيق ولكن " جاء شعره كمعاركه بسيط التخطيط ، تلقائي النزعة صادق الدلالة ، رائع المفاجأة فيما عسى أن يحققه من انتظار واقتدار على كشف الحجاب وإثارة النقد والإعجاب[١٧٧] .

وقد ارتكز شعره على نقطتين أساسيتين هما : طبيعته الفروسية وثقافته الاسلامية ، ولعل هذه الدوافع أوالدافعين مما جعل لشعر عبدالقادر مذاقا عاما واحدا كالشعر الصوفي او العذري او الرمانسي فهو يتغزل ويفتخز ويمدح ويصف فى اثناء قصده الحديث عن فتوحاته الميدانية او تلك التي يسميها العرفانية او عن آماله المنشودة فى هذه او تلك . (١٧٨)

والحديث عن الأمير عبدالقادر الأديب الشاعر ، ليس في الحقيقة بالأمر السهل ، لأن صعوبته تأتي من حيث يظن أنه سهل ، كما أن تصنيف الأمير بين أعيان البيان ليس بالأمر اليسير خاصة إذا احتكمنا في هذا إلى المقاييس الفنية المجردة للشعر العربي واستبعدنا كل ما من شأنه التأثير علينا ومن هنا يصعب على النظرة النقدية إلى الأمير أن تتجرد للفن وحده ، فلا تعانق المثل والمضامين البطولية التي عبر عنها عبدالقادر في فترة مجدية عزلاء من أي مضمون بطولي ، راسفة في أغلال التخلف الفكري مترنحة في الرهبانية الكسيحة(١٧٩)

على الرغم من هذا فإن الأمير استطاع أن يكون شاعرا بقدر ما أتاح له تكوينه الثقافي ومحيطه الفكري ، وان يكون شاعرا بطلا فوق ماتهيئه له الظروف ويحتمله العصر " فاجتهد في أن يكون يطعم هذا بذلك ويوفر التطابق بين الوجهين والتجاوب بين الموقفين موقف البطل المجسم والشاعر المعبر(١٨٠)

ولاريب أن السبب الأكبر الذي ساهم في تفجرشاعرية الأمير واستثار الجانب الأدبي عنده هو ذلك الحدث الأكبر الذي تعرضت له البلاد بغزو الاستعمار لها واختياره عن طواعية أميرا للجهاد والبلاد-إلى جانب جمال طبيعة الجزائر التي استلهم منها عبدالقادر أشعاره الخاصة بالوصف ، فكان بدويا بطبعه عاشقا للطبيعة ، اتخذ من الشعر أداة للتعبير عن أحاسيسه والصور الماثلة في نفسه ، ووسيلة للافتخار بتفوقه

وامتيازه عن عدوه بعلمه ونسبه، وعلى الرغم من تعثر شعره بين المعاني والعبارات التي يؤديها والأوزان التي لا بد من التزامها، إلا أن ذلك مرده كما يشير، د . طه الحاجري إلى: " أن عبدالقادر لم يتح له –في سني دراسته– أن يوثق صلته بروائع الشعرالعربي في عصوره الذهبية، ولم يبلغ من هذا المبلغ الذي يثقل شاعريته ويطوع أداته الفنية[١٨١]

متى أتيح لشاعرنا الوقت الكافي ليجود شعره وينقحه، وأن يتخلص من اساليب العصور المتأخرة وركاكتها وتهالكها " وهو بعيد عن مركز النهضة الحديثة، هو في أقصى المغرب تقريبا، وحركة النهضة تتحرك في مصر وسوريا، وقضى أكثر أيامه في المعارك بين قعقعة السيوف، وتفجر البارود، ورعد المدافع، ورهج السنابك، أو في الأسر حزينا كاسف البال مضيعا ملكه وحريته وماله وأهله وأقرانه ومجده بعد عز عزيز وجاه عريض[١٨٢]

وبعد هذا فإن عبدالقادر – وعلى الرغم مما أخذ عليه– استطاع أن يجسد آمال شعبه في شعره من بطولة وإقدام، وسخر شعره للدعوة لقضية بلاده وهو بعيد عنها، كما استطاع أن يلج كل الفنون الشعرية المعروفة في عهده، فافتخر ومدح ووصف وتغزل، وأولى مذهبه الصوفي جانبا هاما من أشعاره.

الفخر عند الأمير:

للعظمة نواحٍ كثيرة ومظاهر متعددة تخلب الناظر وتستولي على ذهن الفكر، والناحية البارزة هي التي تستأثر بالاهتمام وتمتلك الانتباه، وهكذا فأنت اذا رأيت رجلا عظيما في البطولة نسيت أن هذا الرجل يجيد الأدب والخطابة، وإذا أنت قرأت لشاعر عظيم غاب عنك أن هذا الرجل شجاع ومحارب لأن ناحية العظمة بارزة كائنة في شعره كما كان المتنبي الذي اشتهر بفنه ونسي الناس شجاعته، ولو أنها أدت به إلى فراق الحياة.

وكادت هذه القاعدة أن تطبق على شاعرنا فقد افتتن الناس بشجاعته وبطولته في الجهاد حتى كادوا ينسون أن هذا البطل صاحب قلم وصولجان وأنه رب سيف وكلمة،

وأعطى لكل جانب حقه.

ولعل أفضل ما جادت به شاعرية عبدالقادر هو ذاك الذي تناول فيه موضوعات الفخر والحماسة لأنهما أشبه به، وأجدر بشخصه، فشعره في الفخر " يذكرك بعنترة بن شداد، ولعل أميرنا أولى من ابن زيبية في ذكر البطولة والفداء لأن عنترة كانت بطولته الغزو والكسب، وأميرنا قد وقف عزمه كله على نضال المستعمر الغاصب فشتان بين المقصدين، ويابعد ما بين الهدفين، فالأمير عبدالقادر حين يفتخر يتحدث عن هواجس وأفكار لاتصنع فيها ولا تكلف، فالفخر منه واليه وهو أولى به، فالبطولة جزء من شخصيته، لذلك كان شعره صادقاً كل الصدق صحيحا كل الصحة"[١٨٣] ومن هذا المنطلق أراد عبدالقادر أن يعيد إلى الأذهان في الجزائر تلك الصور للفروسية العربية الأصيلة في وقت كانت البطولة فيه عاجزة عجز المرحلة التي تمر بها البلاد.

وهكذا تصاعدت أنفاس الأمير شعرا بطوليا " وارتسمت مواقفه قصائد معبرة نستشف من خلالها القوة والضعف في ثورة الأمير، والاقدام لايعترف بالإحجام، والبسمة لاتترك مجالا للعبرة، والتكبرة لاتوهنها الآهة أو الزفرة، ومن هنا لانلمس في شعر الامير جانب المأساة بقتلاها وجرحاها، بالمشردين تطاردهم الجيوش الفرنسية في كل شبر من أرض الجزائر، الجانب القاتل لانلمسه في شعر الامير، فقد كانت بالنسبة له معركة قوة وإقدام وانتصار تلو انتصار وفي غمرة القوة تتلاشي مظاهر الألم[١٨٤]

والدارس لفن الفخر عند الأمير عبدالقادر يلاحظ أنه انصب في نقطتين أساسيتين هما: الفخر الفطري الطبيعي، ثم فخر مكتسب إرادي حازه الأمير وناله بمواقفه البطولية واخلاقه الحميدة.

وسنحاول أن نتبع كل نقطة على حدة مستخرجين الأبيات التي تخدم كل جانب لنوفيها حقها من الشرح والتحليل.

الفخر الفطري الطبيعي: ينبع هذا الفخر أساسا من نسبه الشريف الذي يرجع للدوحة الطاهرة آل البيت عليهم رضوان الله، وإلى جده الأمجد الأكرم سيدنا محمد

– عليه الصلاة والسلام– فدماء الإسلام والعروبة تسريان في عروقه سريان الدم فيه، فهو عربي بن عربي، من عائلة شريفة عظيمة الشأن كريمة المنبت، أصلها ثابت في المجد وفرعها يطاول عنان السماء جودا وفضلا وشرفا . ومن هنا حق له أن يفتخر ملء فيه بهذا المجد العالي والنسب المصون، فأبوه رسول الله (ص) أفضل من سعت به قدم على أديم هذه البسيطة وأفضل خلق الله دينا وسيرة، فأمسى لهذا النسب الهاشمي ضرورة حتمية يفرضها المقام:

أبونا رسول الله خير الورى طرّا

فمَن في الورى يبغي يطاولنا قدْرا

ولانا غداً ديناً وفرضاً محتماً

على كل ذي لب به يأمن الغدرا[١٨٥]

فحسب الأمير هذا العز الدائم والذكر المتواصل، غني من متاع الدنيا الزائل من مال وجاه وسلطان، فلو خيِّر بين النسب الشريف وكنوز الدنيا وزخرفها لاختار الأول مقتنعا، إذ كيف يسمو أناس هم أبعد عن هذا النسب وينالون عن طريقه المجد والفخار، وعبدالقادر سليل هذه الشجرة المباركة تنازل عليه مقابل دنيا فانية ومتاع لايدوم؟[١٨٦]

وحسبي بهذا الفخر من كل منصب

ومن رتبة تسمو وبيضاء أو صفرا

بعليائنا يعلو الفخار وإن يكن

به قد سما قوم ونالوا به نصرا[١٨٧]

ويكفي عبدالقادر هذا النسب والانتماء الشريف حفظا وصونا أمام كل من تسول له نفسه المساس بالأمير والحط من مكانته، فمن كان الله مولاه ورسوله فليهنأ وينم قرير العين هانيها لأن كيد العدو سيرد إلى نحره لامحالة:[١٨٨]

ومن رام إذلالا لنا قلت حسبنا

إله الورى والجد . .أنعم به ذخرا

فهذا الإرث النفيس الذي ورثه الشاعر سيبقى شامخا دائما لايزول بزوال الرجال فيه مجد العرب وفخر الإسلام الذي أتى به محمد (ص) فرفع من قريش مكانا عاليا فارتبط ذكر هذا النسب مع حياة المسلم ارتباطا وثيقا " إن الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما" الأحزاب آية ٥٦ ومن من المسلمين لايذكر هذا النسب وأهل البيت وهو ساجد لرب العالمين بقوله "اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما" :

ورثـــنـــا ســـؤددا لـــلـــعـــرب يـــبـــقـــى
ومـــا تـــبـــقى الـــســـمـــاء، ولا الجـــبـــالُ
فـــبـــالجـــد الـــقـــديم عـــلت قـــريـــش
ومـــنـــا فـــوق ذا طـــابت فـــعـــــــال
وكـــان لـــنـــا- دوام الـــدهـــر-ذكـــر
بـــذا نـــطق الـــكـــتـــاب ولا يـــــــزال[١٨٩]

وهذا النسب النبوي الأمجد هو في حالة ديمومة مستمرة، يتوارثه الأبناء عن الأجداد، فهو سلسلة ذات حلقات كل حلقة تمثل عهدا حافلا بالأعمال الجليلة والأخلاق الفاضلة والمواقف النبيلة، فأتباع هذه الدرجة الطاهرة هم القدوة والنبراس يهتدي الناس بنوره في حياتهم أخلاقا ومعاملة وسلوكا :

ومـــنـــا لم يـــزل في كل عـــصـــــــر
رجـــال لـــلـــرجـــال هم الـــرجـــــالُ
لـــقـــد شـــادوا المـــؤسس من قـــديم
بـــهـم تـــرقى المـــكـــارم والخـــصـــال[١٩٠]

ولم يكتف ذلك السلف الصالح بهذا النسب بل زادوه فضائل ومناقب، فهم أهل الهمم والمروءة والأخلاق، يسمون بها فوق النجوم، دأبهم العمل والنضال حماية للدين وصونا لشرف الإسلام ودفاعا عن الحق والعدل :

لـــهم هـــمم ســـمَتْ فـــوق الـــثـــريـــا

حـــمـــاة الـــديـن، دأبـــهم الـــنـــضـــال[١٩١]

وهم يقولون ما يفعلون، وتلك خصلة من النادر أن تجدها إلا في القليل لكن هؤلاء سلالة طه، فإن لم يكونوا هم المثل والنموذج حلما وصبرا وجهادا فمن يكون؟:

لـــهم لـــسن الـــعـــلـــوم، لـــهـــا احـــتـــجـــاج

وبـــيض، مـــا يـــثـــلّـــمـــهـــا الـــنـــزال[١٩٢]

فهذا السلف والخلف الصالح هو مشعل الهداية ونبراس الحق بما أغدقه الله عليهم من فضله العميم فجمعوا خير الدنيا وحازوا ذكراً دائما طول الزمن تساموا بأخلاق نبوية قادرية عباسية فبلغوا من المجد ذراه:

فـــإنـــا أكـــالـــيل الـــهـــدايـــةوالـــعـــلـــى

ومن نـشـر عـلـيـاهـا ذوي المجـد قـد طـوى

فـــنـــحن لـــنـــا دين ودنـــيـــا تجـــمـــعـــا

ولا فـخـر إلا مـالـنـا يـرفع الـلـــــــوا[١٩٣]

وإلى جانب فخره بهذا النسب النبوي الشريف، لم يغفل أصله العربي فراح يتغنى به وبأمجاد أجداده لارتباط النسب النبوي بالعرب، أليس الرسول الأمين عربي ابن عربي ؟ فلا مناص إذن أن كل من انتسب إلى هذه السلالة تجري حتما دماء العروبة فيه، وعلى الرغم من أن هذا الفخر بالعرب لايرد كثيراً في شعر عبدالقادر، إلا أننالا نلاحظ أن فكرة " القومية العربية" قد وضحت عنده قبل كثيرين غيره من زعماء العرب وسبق بها زمنه بنحو قرن تقريبا"[١٩٤] فنراه" يعبر عن أحاسيسه العربية في الشعر ويشيد بالخصائل العربية، بل إن الضباط الفرنسيين الذين عاشوا تلك الفترة وساهموا في الحرب ضد الجزائريين اعترفوا بأن الأمير في بداية كفاحه الوطني كانت تحركه تلك الفكرة وكان يسعى إلى تكوين مملكة عربية بل سعى إلى خلق قومية عربية ARAB NATIONALISM ولكنه عدل عن هذه الفكرة بعد ذلك بحيث اتخذت الحرب صبغة دينية. [١٩٥]

وما دام الأمير سليل هذا النسب فقد رأى نفسه أحق بإرث هذه الأرومة إسلاميا وعربيا بكل ما اشتملت عليه من خصال ومناقب جليلة :[١٩٦]

ورثنا سؤددا للعرب يبقى

وما تبقى السماء، ولا الجبال

الفخر الإرادي المكتسب: لم يقنع الشاعر بفخره الطبيعي الذي ورثه فطريا من نسبه الشريف وعروبته، بل راح يضيف إلى هذا المجد أمجادا أخرى بأفعاله الجليلة، وخلاله الكريمة ومواقفه البطولية الشجاعة سلماً وحربا حتى يكون حلقة وصل بين آبائه وأبنائه، ليضيف إلى رصيد هذه السلالة الكريمة فضائل أخرى متأسيا، يقول الشاعر،

كن ابن من شئت واكتسب أدبا

يغنيك عن مضمونه النسب

إن الفتى من قال ها أنا ذا

ليس الفتى من قال كان أبي[١٩٧]

وفخر الأمير المكتسب هو اعتداد بنفسه " وضرب من ضروب القوى المعنوية التي تستفز المرء على أن يتقدم إلى الأمام بشرط أن يصاحب ذلك نوع من الحكمة التي تكيف الإنسان لتجعل منه عظيما بحق يستحق الزعامة بنوعيها الحسي والمعنوي.

ومن غير شك أن هذا قد توفر بالعمل الصالح، والصبر عند البلاء والعفو عند المقدرة، والجهاد في سبيل الله سيفا وقلما.[١٩٨]

ركب الأمير الأخطار وتحمل الأهوال والمشقات ليرتقي سلم المكارم والمجد، لاطمعا في الدنيا ونعيمها، بل كان هدفه غاية إنسانية نبيلة رأى نفسه كفؤا لتحقيقها فلم يتوان أبدا عن مساعدة المظلوم وإغاثة المحتاج، وذلك أن الفروسية العربية لم تعرف لا التخصص ولا تعرف الذاتية المحدودة الضيقة فهي للجميع " رهن اشارة المستجير، فإذا

الفتى العربي يضع مدلولا للفظة (فتى) متى انطلقت فكرة غير مقصودة"[١٩٩]، وعبدالقادر لايختلف عن اجداده العرب، فلم يشذ عن هذه القاعدة لما كان يرى في نفسه من ضروب القوى البطولية والأخلاقية :[٢٠٠]

لـــنـــا في كل مـــكـــرمـــة مـــجـــال
ومن فـــوق الـــســـمـــاك لـــنـــا رجـــالُ
ركـــبـــنـــا لـــلـــمـــكـــارم كل هـــــول
وخـــضـــنـــا أبـــحـــرا ولـــهـــا زجـــال
إذا عـــنـــهـــا تـــوانى الـــغـــيـــر عـــجـــزا
فـــنـــحن الـــراحـــلـــون لـــهـــا الـــعـــجـــال
ســـوانـــا لـــيس بـــالمـــقـــصـــود لمـــا
يـــنـــادي المـــســـتـــغـــيث:ألا تـــعـــالـــوا
ولـــفظ الـــنـــاس لـــيس له مـــســـمى
ســـوانـــا، والمـــنى، مـــنـــا يـــنـــال

وعبدالقادر في فخره ينقلك إلى واقع حقيقي فهو لم يتخيل معاركه وحروبه تخيلا كما يصورها بعض الشعراء، وإنما يصف كل ما رآه وما عاناه وصف خبير، فقد قضى أيامه، وأفنى زهرة شبابه بين قعقعة السلاح وصهيل الخيل وغبار المعارك مع أهله وجنده الأشاوس، تلمس في فخره أثر عنترة والمتنبي، تغنى مثلهما بالشجاعة والبأس والبطش بالعدو ولاغرو فى ذلك، فقد عرف المعارك ومارسها ممارسة الجندي والقائد :

تـــســـائـــلـــني أم الـــبـــنـــين وإنـــهـــا
لأعـــلم من تحت الـــســـمـــاء بـــأحـــوالـــي
ألم تـــعـــلـــمـــي يـــاربـــة الخـــدر أنـــنـــي
أجـــلِّي هـــمـــوم الـــقـــوم في يـــوم تجـــوالي[٢٠١]

وينطلق في وصف آيات البطولة والشجاعة، فهو لايخشى الموت، بل كلما سعى اليه وهبت له الحياة، إيمانا من شاعرنا بأن موتا كريما فى ساحة الشرف الذي تمثل المرأة فيه الركن الأساسي أختا كانت أم أما أم حبيبة " فالمرأة نصف الرجل وتمام عيشه وحياته وهنائه، فهي مبعث الرضا والغضب والأمل والألم والشفاء والرخاء، وهي المعين والإلهام والجمال والجلال، فلا غرابة أن يسعى الرجل إلى نيل رضاها في كل حين وفي سبيل هذه الغاية سعى متفننا في الوسائل الموصلة إلى ذلك ببراعته وخياله وعبقريته، فتارة يغني لها وتارة يتحدث عنها، ولها حديث القلب وخواطر الفؤاد ونجوى الخفايا، وطورا يتوسل إليها بوسائل أخرى مراعيا في ذلك ظروف الأرض والاقليم والزمان والثقافة ومتطلبات الأحوال، ولئن تعددت الوسائل فقد اتفقت كلها فى هوى القلب وبث الصبابة والوجد. [٢٠٢]

وهكذا يعطينا عبدالقادر – وكذلك أهل الفروسية– " مثالا للانعطاف التلقائي نحو خصيصة صدق العطاء في المرأة وتلازمها – أي المرأة – في العطاء الصادق في موقف يرجى أن يقفه صاحبه. [٢٠٣]

وأغشَى مضيق الموت، لا متهيبا
وأحمي نساء الحي، في يوم تهوال
يثقن النسا بي حيثما كنت حاضرا
ولا تَثِقَنْ في زوجها ذات خلخال[٢٠٤]

وكعادة الأبطال، أمثال الشعر –تراهم يتقدمون الصفوف معرضين أنفسهم لخطر الردى ليعطوا المثال والقدوة للجند في التضحية والفداء، فهو موقد نار الحرب وملهب أتونها، تراه يتقدم جيشه مع بداية النزال، وآخرهم عند نهايتها، همه ضرب الرقاب وجز الرؤوس، لاتلهيه عن ذلك مغانم العدو وأسلابه، هدفه الوحيد إذكاء روح جنده حماسة ونخوة، يدافع عنهم دفاع الوالد عن فلذات أكباده، يحميهم ويدفع الأذى

عنهم ويضحي من أجلهم فتراهم عند نهاية المعركة يعودون إلى قائدهم وبطلهم بآيات الشكر والامتنان لما بذله من شجاعة وبطولةحماية لهم :

أميرٌ إذا ما كان جيشيَ مقبلا

وموقد نار الحرب،إذ لم يكن صالي[٢٠٥]

إذا ما القيت الخيل إني لأول

وإن جال أصحابي فإني لها تال

أدافع عنهم ما يخافون من ردى

فيشكر كل الخلق من حسن أفعالي

ولشدة هول معارك الأمير فانه يورد راياته سليمة عند بداية النزال لتؤوب آخر المعركة وهي اشبه ماتكون بالغربال لكثرة مالحقها من إصابات محاولة من العدو لإسقاطها : [٢٠٦]

وأورد رايات الطعان صحيحة

وأصدرها بالرمي تمثال غربال

ويعرض في سخرية بالأبطال والقادة الذين لايحملون من البطولة والشجاعة الا لقبها وقشورها ، حتى إذا ماجد الجد وحمي وطيس المعركة يدفعون جندهم إلى لهيبها ، فيراقبون الحرب وهم في المؤخرة بين الحراس ، فإن كانت المعركة لهم ، نسبوا النصر والفوز لأنفسهم ، فكالوا لهم المدح والفخر ، وإن كانت عليهم سهل عليهم الفرار لأنهم في المؤخرة تاركين جندهم يواجهون المصير المحتوم ، أما الأمير فنقيض هؤلاء تماما : [٢٠٧]

ومن عادة السادات بالجيش تحتمي

وبي يحتمي جيشي وتحرس أبطالي

وليس ذلك انتقاصا من شجاعة جنده ولكنها البطولة في أسمى معانيها والتضحية

في اجل صورها، الأمير أب لجيشه قبل أن يكون قائدا لهم يحميهم ويدفع عنهم الأذى رحمة بهم وحبا لهم، ومن كان قائده كعبدالقادر فلا نخاله الاصورة منه شجاعة وبطولة، فهم أشبال أسد هصور يتقدمون دوما ليريهم آيات الشجاعة ليعلم الجند كيف تكون القيادة بحق: (٢٠٨)

وبي تتقى يوم الطعان فوارس

تخاليهم فى الحرب أمثال أشبال

وينقلك شاعرنا إلى صورة قديمة فى الفروسية، صورة عنترة وهو يحاور فرسه الذي اشتكى الجراح والطعنات يدعوها فيها إلى الصبر والتجمل كفارسه، يقول الأمير: (٢٠٩)

إذا ما اشتكت خيلي الجراح تحمحما

أقول لها: صبرا كصبري واجملي

أجل إلى هذا الحد يعتد الأمير بنفسه الكريمة التي يضعها على كفه، وهو يعلم أنها غالية، ولكنها ترخص في سبيل أسمى وهو الدفاع عن حياض الدين والشرف، ويلتفت إلى حبيبه – أم البنين– لتأكيد هذه الحقيقة والإفاضة فى رسم صور هذه البطولة التي شهد بها الأعداء أنفسهم، فأرواحهم دوما مرهونة بضربات سيفه التي لا تفتأ تحز الرؤوس الظالمة: (٢١٠)

وأبذل يوم الروع نفسا كريمة

على أنها في السلم أغلى من الغالي

وعني سلي جيش الفرنسيين تعلمي

بأن مناياهم بسيفي وعسالي

ولاينفك شاعرنا وليله صديقين متلازمين، يقطع ظلماته ممتطيا جواده الأصيل

يسابق الريح ، يرتل هذه البطولة ويتغنى بها أوزانا تذكي أريحيته واقدامه معيدا إلى أذهان الشعب تاريخ الفروسية العربية بمفهومها الحسي والمعنوي ومظهريها المادي والادبي ، يباغت العدو وينزل به الضربات القاتلة يلاحقه أينما حل وارتحل ، يبعث فيه الخوف وينشر الرعب ، ليطوي أعنف أسطورة استعمارية بأروع صفحة بطولية : [٢١١]

سلي الليل عني كم شقت أديمه

على ضامر الجنبين معتدلٍ عالِ

سلي البيد عني والمفاوز والربى

وسهلا وحزنا كم طويت بترحالي

فما همتي إلا مقارعة العدا

وهزْميَ أبطالا شِداداً بأبطالي

ثم أية شجاعة هذه وأية بطولة تلك التي يصبح صاحبها مهاب الجانب حيا أو تحت الثرى عظاما نخرة ، إنها ولاشك العظمة فى أبهى صورتها والثقة فى النفس فى أسمى معانيها ، فالأمير الفارس حيا وميتا هو دوما مصدر خوف وهلع لأعدائه ، فلا هو أراحهم في حياته بمعاركه ، ولا هو أراحهم بموته بصورته المجسدة فى كل مجاهد جزائري يرفع السلاح عاليا في وجه الظلم والاستعباد ، فروحه تذكر العدو- لعل الذكرى تنفعه اذا نسي - يوما بأن شعبا أنجب عبدالقادر مادام فيه نبض واحد يخفق بالحياة لن يموت ابدا : [٢١٢]

فلا تهزئي بي واعلمي أنني الذي

أهاب ولو أصبحت تحت الثرى بالي

لقد التزم الأمير أمام أبناء وطنه بأن يتحمل مسؤولية العباد والجهاد وبذلك الزمه عهده الوفاء بذلك ، فقضى معظم أيامه ولياليه ممتطيا صهوات الخيل تقطع به البراري والقفار يتبع خطى عدوه يهاجمه تاره ويناوشه أخرى ، وخيله صابرة تعاني التعب

ومشقة الطريق حتى لتشرف من جراء ذلك على الهلاك ولكنها تقاوم وتصابر، وكأنها أحست أنها تحمل إلى جانب فرسانها مسؤولية عظمى فلن تنعم بالراحة الا اذا بلغت الهدف فوصلت هؤلاء الفرسان بأعدائهم فهي تعدو مطيعة آناء الليل وأطراف النهار، كأنها تخوض بحار السراب من شدة ما أصابها من التعب والعذاب: (٢١٣)

تـوسَّـدْ بمـهـد الأمن قـد مـرَّتِ الـنـوى
وزال لـغـوب الـسـيـر من مـشـهـد الـثـوى
وعـرّ جـيـادا حـاد بـالـنـفس كَـرُّهـا
وقـد أشـرقت- ومـا عـراهـا - عـلى الـتـوى
ألا كم جـرت طـلـقـاً بـنـا تحت غـيـهـبٍ
وخـاضت بـحـار الآل من شـدة الجـوى

ويحلو لشاعرنا أن يتمثل صور الفرسان العرب القدماء وهم يقطعون الصحاري المقفرة الا من السباع المتوحشة بكل شجاعة وإقدام فتراه على جواده يشق أديم المفازات لايبدي خوفا ولا جزعا على الرغم مما يكتنفها من أخطار محدقة تظل القطا فيها السبيل ويعوي الذئب من هول مايرى فيها من الوحشة، إلى أن يصل الأمير إلى مرابع قومه بخيله الضامرة الهزيلة التي أوشكت على الهلاك، فيرى ألسنة نيران خيامهم تهدي الضال وتدعو السابلة إلى القرى والأمان وتلك أسمى آيات المروءة والخصال العربية التي يعتز بها عبدالقادر أيما اعتزاز: (٢١٤)

وكم من مـفـازات يـضل بـهـا الـقـطـا
قـطـعت بـهـا والـذئب من هـولـهـا عـوى
وقـد أصـبـحت مـثل الـقـسي ضـوامـرا
وتـلك سـهـام لـلـعـدى وقـعـهـا شـوى
إلى أن بـدت نـيـران أعلامـنـا لـهـا
وفي ضـوء نـيـران الـكـرام لـهـا صـوى

ولم يعد فارسنا إلى مضارب قومه من فسحة صيد أو نزهة تريض، بل آب اليهم بعدما خاض معركة دامية يشيب لهولها الولدان لكثرة مازهقت فيها من أنفس، وما لقي فيها الأبطال من مشاق وأهوال، ترك أعداءه فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاويةهوت رؤوسهم وتطايرت أمام سيوف عطشى تسعى لتشفى ظمأها، فتروى من دماء الغزاة تؤازرها ضربات رماح لاتعرف الكلل والفتور، تركت العدا مذهولين أمام هذه الصور البطولية النادرة، فى يوم عانى فيه شاعرنا أشد العناء وكاد يدفع روحه ثمنا لهذه البطولة، لولا أن تداركه فرسانه بعد ما سقط به جواده بضربة قاتلة: [٢١٥]

ونحن سقينا البيض كل معرك

دماء العدا والسمر أسعرت الجوى

ألم تر في (خنق النطاح) نطاحنا

غداة التقيناكم شجاع لهم لوى؟

وكم هامة ذاك النهار قددتها

بحد حسامي والقنا طعنه شوى

ويوم قضى تحتي جواد برمية

وبي أحدقوا لولا أولو البأس والقوى

وأعيدت السيوف إلى أغمادها وهي شاكرة أفعال المجاهدين بعد أن ارتوت فأطفأت بذلك جمرة عطشها الطويل: [٢١٦]

وأسيافنا قد جردت من جفونها

وردت إليها بعد ورد وقد روى

ولم يكن هم الأمير وهو يصول ويجول في ميدان المعركة، هذا الجندي الضعيف بل كان يتحسس قواد الجيش وأبطاله، فتقع عيناه على زعيم القوم الذي يحاول مفاجأة عبدالقادر ولكنه كان أسرع، فلم يدع الفرصة لعدوه ليصيبه، بل لم يدعه حتى يفلت

بجلده، فشد عليه وعاجله بحسامه وهو مولّي الدبر ليخر الزعيم صريعا، فخلا الجو بذلك لبطلنا لينزل على أعدائه كالضيغم فيزيدهم قتلا وأسى، يختال على جواده الأصيل يشق به الجموع، ويقتحم الصفوف، لايعرف الخوف والإحجام، دأبه الجهاد وقتال الكفار إيمانا من الشاعر بأن عمله هذا من صلب الدين ومن لاغيرة له عل دينه فلا خير يرجى منه: (٢١٧)

ولما بدا قرني بيمناه حربة
وكفي بها نار بها الكبش قد شوى
فأيقن أني قابض الروح، فانكفا
يولي فوافاه حساميَ مذ هوى
شددت عليه شدة هاشمية
وقد وردوا ورد المنايا على الغوى
نزلت (ببرج العين) نزلة ضيغم
فزادوا بها حزنا وعمهم الجوى
ومازلت أرميهم بكل مهند
وكل جواد همّه الكر لا الشوى
وذا دأبنا فيه حياة لديننا
وروح جهاد بعدما غصنه ذوى

ونظير هذه البطولة الخارقة وذلك النسب الشريف، كان عبدالقادر أحق الناس بتحمل مسؤولية الإمارة، فقد فوجئ بها كفجأة موسى بالنبوة وهو بالوادي المقدس طوى، وتلك الأمارة أو العروس لم تذعن ولم ترض- على الرغم من كثرة طالبيها - الا لشاعرنا الذي توافرت فيه كل الخصال، فانقادت له حبيبة وعروسا يحميها ويصونها وكان الأمير عند حسن الظن فقام بالأمر على أكمل وجه. ولعل استحضار صور "

العروس الحسناء " عند الشعراء وأولي الفن بصفة عامة هو شعور بالعطاء المادي والمعنوي" كما دلت على ذلك ملابسات حرب العاشر من رمضان على سبيل التمثيل القريب الشاخص، حيث اندلع الشعور بالمرأة صورة وعطاء، وعروسا، وأما وأختا وحبيبة، وخطيبة، وعروساوأما وزوجة في معارض عديدة للفنون لاسيما التشكيلية، وللخطوط العربية، وفي الأناشيد والأغاني والقصائد والقصص والخطب الرسمية والأحاديث الصحفية. . . ودارت موضوعات كثيرة من أنواع الفنون حول" الأنثى" مدينة أوصحراء أو منطقة حتى ليحار المرء، ماذا كان سيغني الناس لو لم يجدوا لمصر سيناء والسويس والقناة فضلا عن الجولان والقدس أسماء مؤنثة تجري عليها أحكام العروس مجازا[٢١٨]

لذاك عروس الملك كانت خطيبتي

كفجأة موسى بالنبوة في طوى[٢١٩]

وقد علمتني خير كفء لوصلها

وكم رد عنها خاطب بالهوى هوى

فواصلْتها بكرا لديَّ تبرجت

ولي أذعنت والمعتدي بالنوى ثوى

وليست الفروسية والبطولة عند العرب وعند شاعرنا عبارة عن وثبة على ظهر جواد، ولا ضربة سيف قوية أو ,شجاعة متهورة، لكن الفروسية الحقة هي اخلاق كريمة وشمائل فاضلة عليا، لذلك حرص عبدالقادر على أن لايصدر منه أي فعل مشين أو تصرف يمس أخلاقه، بل سعى جهده إلى المروءة يبتغيها، فقد أجمع كل من تعرض لحياة عبدالقادر على أنه كان على خلق عظيم جعله موضع تقدير وإجلال من طرف الجميع، العدو قبل الصديق، سواء أكان ذلك في فترة جهاده فقد كانت معاملته للأسرى آية في الشهامة والحلم وعزة النفس[٢٢٠]، أو اثناء أسره حيث كان مثالا للصبر

والتجلد، فقد كان يترفع عن الصغائر ويسمو بنفسه لجلائل الأعمال وهذا مانلمسه عنده في أول مقطوعة له بالديوان، فحين يهديك صورته يحذرك من أن تغتر أو تقنع منها بالمظهر فيعجبك الشكل وتنسى الأصل والباطن، بل يطلب منك أن تمعن النظر وتتجاوز الملامح لتنفذ إلى الأعماق فتلمس حقيقة الذات الأصيلة التي تختفي وراء هذا الرسم: (٢٢١)

لئن كان هذا الرسم يعطيك ظاهري

فليس يريك الرسم صورتنا العظمى

فثم وراء الرسم شخص محجب

له همة تعلو بأخمصها النجما

ويقرر الأمير بحكمة سامية أنه لايجب أن نحكم على المرء بمظهره الخارجي: من مال وجاه، بل إن قيمة الإنسان تبدو في الخلق الحسن والأعمال الجليلة النافعة، لأن الله لاينظر إلى الصور والأجساد وإنما ينظر إلى القلوب والأفعال ومتى تجمع للإنسان حسن الخلق وجمال المظهر، فتلك هي النعمة الكبرى: (٢٢٢)

وما المرء بالوجه الصبيح افتخاره

ولكنه بالعقل والخلق الأسمى

وإن جمعت للمرء هذي وهذه

فذاك الذي لايبتغي بعده نعمى

وبهذا التكامل والتوافق بين المظهر والباطن وبين الناحية المادية الشكلية، والناحية المعنوية الخلقية، تتجلى الصور المثلى للبطولة التي يسعى عبدالقادر إلى بلوغها بمكارم أخلاقه وشجاعته قولا وفعلا، علما وعملا، فهو مغرم بالتوافق بين النظرية والتطبيق: (٢٢٣)

رفـــعـــنـــا ثـــوبـــنـــا عـن كـل لـــوم

وأقـــوالي تـــصـــدقـــهـــا الـــفـــعـــال

وشاعرنا في مواقفه البطولية والأخلاقية جاد غير هازل ليس كغيره من كثير من الشعراء الذين يغرقون في الفخر إلى درجة التدجيل ويلبسون أنفسهم شمائل هم أبعد الناس عنها، فميزة الصدق في الأقوال قليلة عند الإنسان في مثل هذه المواطن لكن الشاعر يجسد أقواله على أرض الواقع فتحتمل نفسه الظمأ الشديد وتأبى أخلاقه ومروءته أن ينهل من نبع ذل حتى ولو هلك تعففا وترفعا، فالموت في هذا الموقف أشرف عند عبدالقادر الذي تطاولت أمجاده وتسامت فإذا هي جبال راسيات شامخات لايشوبها خوف ولا جبن وينعدم معها الغدر والخيانة، زانها حلم واسع وكرم بلا من، وكف عن السؤال لغنى النفس، فهو يمنح قبل أن يسأل ويبذل قبل أن يطلب منه ذلك: (٢٢٤)

ولـــو نـــدري بمـــاء المـــزن يـــزري

لـكـان لـنـا عـلـى الـظـمـأ احـتـمـال

ذرا ذا المجـد - حـقـا - قـد تـعـالـت

وصـــدقـــا، قـــد تـــطـــاول، لايـــطـــال

فـلا جـــزع ولا هـــلـــع مـــشـــيـــن

ومـــنـــا، الـــغـــدر أو كـــذب، مـــحـــال

ونـحـلـم، إن جـنـى الـسـفـهـاء يـومـا

ومـن قـبـل الـسـؤال لـنـا نـوال

و شاعرنا بأخلاقه الكريمة سمح حليم، لايحمل حقدا ولا غدرا يجد راحته وعزته في السفر، يجول في أرض الله الواسعة، يحسن لجيرانه، ينأى عنهم دون ضرر أو أذى، ناره تطاول عنان السماء تهدي السابلة والمحتاجين إلى كرم حاتمي وأمن وأمان: (٢٢٥)

لا نحمل الضيم ممن جار .نتركه

وأرضه .وجميع العز في السفر

وإن أساء علينا الجار عشرته

نبين عنه بلا ضرٍّ ولا ضرر

نبيت، نار القرى تبدو لطارقنا

فيها المداواة، من جوع ومن خصر[٢٢٦]

وكأي من امرئ تجمعت فيه هذه المناقب والخصال، لكنه يفسدها بالظلم والجور، فتذهب مساعيه أدراج الرياح، فلا يقام له وزنا لأنه يفتقد أساس الخلق وهو العدل، وهذا ما أدركه عبدالقادر جيداً ووعاه، فنراه يؤسس إمارة العدل، فيضع الحق والقانون فوق الجميع بلا استثناء، متأسيا بالسلف الصالح، ممثلا في عمر الفاروق آملا أن تكون سيرته العادلة هذه مشعل ونبراس حق يضيء الدرب أمام الناس: [٢٢٧]

وقد سرْتُ فيهم سيرة عمرية

وأسقيت ظاميها الهداية، فارتوى

وإني لارجو أن أكون، أنا الذي

ينير الدياجي بالسنا بعد ما لوى[٢٢٨]

وإلى جانب هذا، أفرد الأمير في فخره حيزا لعلمه وثقافته اللذين اشتهر بهما، فقد طلب العلم منذ أن شب على الطوق وشد اليه الرحال، وتحمل في سبيل تحصيله المشاق والأهوال، فجمع بذلك بين رتبتي السيف والقلم، إذ نشأ شاعرا وفارسا، وصار حاكما عالما، عاش حياته يطلب العلم ويؤتيهما في السعة والسجن والمهجر، فقد كان معلما دائما ومقاوما للعدوان " وعبدالقادر أمير شرقي من أمراء هذا القرن الجسر بين عصر وعصر، واذا لم تكن ثقافته – من الناحية النظرية المتبعة في نقده – مثل

طبيعته ووظيفته ثائرة مقابلة ومجندة لغاية يتصبب شوقا إليها ويستدعي كل طاقاته وجنوده للرباط فيها، فهي - على أقل احتمال -مواكبة لعصره وبيئته في تلك الحقبة التي بدت فيها المدينة وكأنها طفلة طلعت إلى الفناء في الغرب وكهلة تنحدر نحو العقم في الشرق : (٢٢٩)

وبـــالـــله أضـحى عـزنـا وجـمـالـنـا

بـتـقـوى وعـلـم والـتـزود للأخـرى (٢٣٠)

وعبدالقادر عرفناه فارسا مغوارا وشاعرا مجيدا، ولكنه يلفت انتباهنا إلى أننا قد علمنا شيئا وغابت عنا أشياء، فراح يباهي ويفتخر على أعدائه بامتيازه عليهم " لروايته الحديث وعلمه بالفقه والنحو، فالعلم والعمل به توأم الاعتقاد والسلوك ومواجهة حاجة المجتمع بالتلبية، فلا فرق بين أن تعمل العلم للسلم أو تعمله للحرب، وخير العلماء عنده العالم المتبحر في رواية وفهم الحديث النبوي وإيتائه طيب المورد سهل المنى، واتخاذ (الفقه المالكي) حاكما قائما في التربية الفردية والشعبية، والتزام النظام بأصوله وأحكامه وأدلته وأقيسته : (٢٣١)

أجل إلى هذا الحد يعتد بنفسه ويجعلها منتهى بلوغ الأمل بشجاعة وأخلاق وعلم وعمل ونسب وجمع فخر الدين والدنيا : (٢٣٢)

فـإن شـئت عـلـمـا تـلـقـني خـيـر عـالـم

وفي الـروع أخـبـاري-غـدت- تـوهـن الـقـوى

لـنـا سـفن بـحـر الـحـديث بـهـا جـرى

وخـاضت فـطـاب الـورد مـمن بـهـا ارتـوى

وإن رمت فـقـه الأصـبـحيِّ فـعج عـلى

مـجـالـسـنـا تـشـهـدْ لـواء الـعِـنـا دوا

وإن شئت نحواً فانْحُنا تلق ماله

غدا يذعن البصري[٢٣٣] زهدا بما روى

ثم إن هذه الفروسية والبطولية العربيتين قد ولدتا عند الأمير روحا جماعية ورسخت في نفسه شعورا عميقا بالجماعة" فعندما يقول عبدالقادر" نحن" فإنما يعني في ميزان النقد الأدبي تألق الشعور الجماعي عند الفرد الواحد الذي اختير بطريقة ما، ليعبر عن شعور الجماعة ورضاها بشعوره وتعبيره"[٢٣٤] بل ان الضمير " أنا" عند شاعرنا أصبح يعني الشعور الجماعي، ولذلك لم يكن الأمير أنانيا في فخره إن صح القول ولم يول نفسه الحظ الأكبر من فخرياته، بل جعل ذلك مشتركا بينه وبين صحبه الذين نصروه، وآزروه، وعزروه، فلا جرم إذن أن يصيبهم جانب من هذا الفخر والمديح، ولم يحتكر الأمير هذا الشرف لنفسه فحسب، بل قسمه بالتساوي بينه وبين رفاقه، وهذا دليل " على سمو أفكاره وتفكيره وعلو مقاصده الشريفة، لأنه بهذا الاعتراف الجميل لأولئك الأبطال المغاور، وضعهم في مأمن من التزعزع. [٢٣٥]

ومن هذا المنطلق فإن التقوى بالجماعة " طغى على الشعور بالفردية وسحق كل أثر للعزلة والانفراد عن المجموعة الهائلة، وقلب الفخر بالذات إلى المباهاة بالجماعة، ومبدأ التمدح بالبطولة الفردية إلى الإعجاب بالقوة العامة المتكاثفة. [٢٣٦]

وعبدالقادر حين يفتخر بأصحابه ويعتز بهم، فإن هذا ليس من باب التملق لأنه يراهم في نفس منزلته وقيمته، ويخوضون معه لهيب المعارك، ويفدونه بأرواحهم وأموالهم، فقد كانوا أنصاره وجنوده في حربه الضروس، ومؤنسي غربته وأسره، وجلسائه في حلقات العلم والثقافة، لم يبتعدوا عنه أبدا، ففخره بهم ومدحه لهم" هو في الحقيقة قادم من ميزة رفاق السلاح، فليس يتقدمهم لأنه أشجعهم وأقواهم ولكن

من جهة أنه يحبهم فيحمي صفوفهم وهم يحبونه ويحترمونه فيتبعونه، فذلك- إن لم يكن يقتضيه الإنصاف- من فروض الفروسية وخصائصها لأنهم شعراء وفرسان في آن واحد[٢٣٧]، فهؤلاء الفرسان قد رضعوا لبن الشجاعة والفروسية مع حليب أمهاتهم فغدوا يطلبون الجهاد ويفرحون للنزال تراهم يصولون ويجولون يلقون الرعب في قلوب عدوهم الذي أمسى حزينا مهموما لأنه يعلم أن حياته معلقة بسيوفهم: [٢٣٨]

جزى الله عنا كل شهم غدت به
غريس[٢٣٩] لها فضل أتانا وما انزوى
فكم أضمروا نار الوغى بالظبا معي
وصالوا وجالوا والقلوب لها اشتوا
وإنا بنو الحرب العوان لنا بها
سرور إذا قامت وشانئنا عوى

ومن أشهر ما قاله الأمير مدحاً لهؤلاء وفخراً بهم هذه الأبيات (من الشعر القادري . . . قادري لأنه أرق مايعثر عليه فيما يرسله القادة العسكريون إلى أحبتهم الجنود المجاهدين[٢٤٠] يتشوق اليهم ويمدحهم بقصيدة إخوانية تنهض فيها "كم" الخبرية ثلاثاً وثلاثين مرة.

يستهل عبدالقادر لاميته بدعوة الريح-ريح الجنوب- لتنوب عنه في حمل تحياته وأشواقه إلى هؤلاء الفرسان، الذين اكتوى الشاعر بنار البعد عنهم فقد جفاه النوم، يبيت ليله سهرانا عسى أن يظفر بطيف منهم، فكل عذاب في الدنيا يهون، إلا هجر الأحباب والإخوة، وأية إخوة هؤلاء ؟ إنهم أرباب عهده وصفوة جنده، وسنده القوي، وزاده عند الحاجة، مازالوا أوفياء لما عاهدوا الله ثم الأمير عليه، لم تؤثر فيهم نوازل الدهر، بل زادهم ذلك إصرارا على الوفاء، فهم سلالة تلكم الدوحة المباركة النبوية وحاملو راية الدين والشرف، اختارهم المولى واصطفاهم على بقية عباده

لإيمانهم وصبرهم وحسن بلائهم، فحق للشاعر أن يمدحهم لأنه خادم أوخويدم المجاهدين والعلماء العاملين – كما يقول دائما –معللا ذلك تعليلا ينتصف فيه لنفسه ولهم على السواء، يقول: (٢٤١)

يـأيـهـا الـريح الجـنـوب تـحـمَّـلـي
مـني تحـيـة مـغـرم وتـجـمَّـلـي
واقـري الـسلام أُهَـيْل ودي وانـثـري
من طـيب مـا حُـمّـلتِ، ريح قـرنـفل
خـلـي خـيـام بـني الـكـرام وخـبّـري
أني أبـيت بـحـرقـة وتـبـلـبل
جـفـنيَّ قـد ألـفـا الـسـهـاد لـبـيـنكم
فـلـذا غـدا طـيب المـنـام، بمـعـزل
كم لـيـلـة قـد بـتُّـهـا مـتـحـسـرا
كـمـبـيت أرمـد في شـقـا وتـمـلـمل
سـهـران، ذو حـزن تـطـاول لـيـله
فـمـتى أرى لـيـلي بـوصـلي، يـنـجـلي؟
مـاذا يـضـر أحـبـتي لـو أرسـلـوا
طـيف المـنـام يـزورني بـتـمـثل
كل الـذي ألـقـاه في جـنـب الـهـوى
سـهل، سـوى بـين الحـبـيب الأفـضل
أدي الأمـانـة يـاجـنـوب وغـايـتي
في جـمع شـمـلي، يـانـسـيم الـشـمـأل
حـاولت نـفـسي الـصـبـر عـنـهمُ قـيل لي
مه ذا مـحـال .ويك عـنـه تَـحـوَّل
كـيف الـتـصـبـر عـنـهم؟ وهمُ همُ

أربـــاب عـــهـــدي بـــالـــعـــقـــود الـــكـــمَّل

أفـــدي أنـــاســـاً لـــيس يُـــدعَى غـــيـــرهم

حـــاشى الـــعـــصـــابـــة والـــطـــراز الأول[٢٤٢]

ثم يمضى واصفا هؤلاء الأحبة من غير أن يختص أحدا دون آخر بمناقب جامعة لخصائص الفروسية المثالية من كرم وجود وشهامة وإيثار، فإن كان غيرهم بالمال يضن فهم بالأرواح يجودون، يسترخصونها في سبيل أهدافهم ويضعونها على أكفهم يبتغون بذلك فضلا من الله ورضوانا، فيرضى عنهم الرحمن ويسر من أفعالهم وهم يجابهون عدوهم صابرين مرابطين غير مولّي الأدبار: [٢٤٣]

إن غـــيـــرهـم بـــالمـــال شح ومـــا ســـخـــا

جـــادوا بـــبـــذل الـــنـــفس، دون تـــعـــلـــل

الـــبـــاذلـــون نـــفـــوســـهم ونـــفـــيـــســـهم

فـي حب مـــالـــكـــنـــا الـــعـــظـــيم الأجـــلـــل

كم يـــضـــحـك الـــرحـــمن من فـــعلاتـــهم

يـــوم الـــكـــريـــهـــة نـــعم فـــعل الـــكـــمَّل

فهؤلاء الصادقون الصابرون في يوم الكريهة، يتحملون نوائب الدهر وشدائد الجهاد، بأنفس شجاعة كريمة، تنزهت وزهدت في الدنيا وزخرفها، همها الأكبر قراع الجحافل، وخوض المعارك فهم فرسان يومهم، زهاد ليلهم، تاركين ما دون ذلك لسواهم، يرون حلو الحياة ولذتها في نيل وسام الشهادة فهو عندهم منتهى الأمل: [٢٤٤]

الـــصـــادقـــون الـــصـــابـــرون لـــدى الـــوغى

الـــحـــامـــلـــون، لـــكل مـــا لم يـــحـــمل

إن غـــيـــرهـم نـــال الـــلـــذائـــذ مـــســـرفـــا

وهكذا نرى صحب الأمير عاكفين دوما على الجهاد، يروون سيوفهم العطشى من دماء اعداء الله والوطن، ينزلون على عدوهم وينقضون عليه انقضاض الصقر الجارح على فريسته، فلا يجد العدو من دونهم عاصما فلا الجبال والكهوف تمنع عنهم الضربات القاتلة، حتى صغار الجند- هؤلاء الأشبال- لاتعرف الشكوى إلى نفوسهم سبيلا يخوضون غمار الحرب ويصطلون بنارها كآبائهم . أوليست هذه الأشبال من تلك الاسود؟ توارثوا الشجاعة والإقدام والصبر أبا عن جد فحافظوا على الإرث وهم على الدرب سائرون:

وألذ شيء عندهم لحم العدا
ودماؤهم كزلال عذب المنهل
النازلون بكل ضنك ضيق
رغما على الأعدا بغير تهول
لا يعرف الشكوى صغير منهم
أبدا ولا البلوى إذا ما يصطلي[٢٤٥]
مامنهم إلا شجاع قارع
أو بارع في كل فعل مجمل[٢٤٦]

وتأتي (كم) الخبرية لتنهض بحشد صور هؤلاء الفرسان فتربط بين الماضي التليد والحاضر المأمول، فهم المجتمعون على المنافسة والمسارعة والمحاربة والمضاربة، والمغالبة والمصابرة، والمكابرة والمغادرة والمجاهدة والمطاردة والتجلد، والإدلاج والإزعاج، وإسراج الجياد، وتشريد العدو وتبديد شمله، وجمع كلمة المجاهدين على الحق والجهاد، في وطن واحد وملة واحدة، يصدر منها عمل موحد مفروضا فرضا مقدسا من لدن إله واحد، يجد فيه المؤمن الحقيقي الأمان والسكينة ويهب لافتدائه متى نادى

منادي الجهاد إلى ذلك[٢٤٧] :

كم نـافـسـوا،كم سـارعـوا، كم سـابـقـوا
من سـابـق لـفـضـائـل وتـفـضُّل
كم حـاربـوا، كم صـابـروا،كم غـالـبـوا
أقـوى الـعـداة بـكـثـرة وتـمـوّل
كم صـابـروا،كم كـابـروا،كم غـادروا
أعـتـى أعـاديـهـم كـعـصـفٍ مـؤكـل
كم جـاهـدوا،كم طـاردوا وتجـلـدوا
لـلـنـائـبـات،بـصـارم، وبـمـقـول[٢٤٨]
كم قـاتـلـوا،كم طـاولـوا،كم مـاحـلـوا
من جـيش كـفـرٍ بـاقـتـحـام الجـحـفل
كم أدلجـوا[٢٤٩] كم أزعـجـوا،كم أسـرجـوا
بـتـسـارع لـلـمـوت، لابـتـمـهـل
كم شـردوا،كم بـددوا، وتـوعـدوا
تـشـتـيت كل كـتـيـبـةٍ بـالـصـيـقـل

ومن كانت هذه خصاله فمن غير شك أن نفسه تهفو دوما للقتال وتحن إلى سماع صليل السيوف وصهيل الخيل ، وتستبشر باليوم الذي تدق فيه طبول المعركة – أن حي على الجهاد– فتعم الفرحة ، ويتسابق الأبطال لجندلة الأعداء ومسح سيوفهم الملطخة دما في ثياب الصرعى من القوم ، لترد إلى اغمادها بيضاء تلمع تسر الناظرين[٢٥٠] :

يـوم الـوغى يـوم المـسـرة عـنـدهم
عـنـد الـصـيـاح له مـشـوا بـتـهـلل
فـدمـاؤهـم وسـيـوفـهـم مـسـفـوحـة

ممسوحة بثياب كل مجندل

فالشهادة لديهم مبتغى الأمل، يحرصون عليها لينالوا شرف الدنيا والآخرة، وينعمون بفضل من الله ورضوانا، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، يتسابقون إليها تسابق غيرهم لنيل عرض الدنيا وحطامها الزائل، يستبشرون لأخيهم الذي قضى نحبه تحت ظلال السيوف شهيدا، يود كل بطل منهم لوكان مكانه، فيحوز شرفا عاليا، وذكرا دائما، فالعار العار عندهم أن يلقى الإنسان ربه بعيدا عن ساحة الوغى فيموت حتف أنفه ميتة البعير، وإن كان حقه، بل حق الفروسية والبطولة أن يموت بين السيوف: [٢٥١]

لا يحزنون لهالك بل عندهم
موت الشهادة غبطة المتحول
ماالموت بالبيض الرقاق نقيصة
والنقص عندهم بموت الهمَّل

ويكون مسك ختام هذه القصيدة دعوات ضارعة من الشاعر تذكرنا بدعوات جده المصطفى (ص) لأصحابه وجنده لحظة لقاء العدو، لتثبيتهم وزرع الطمأنينة في قلوبهم، ودعوة المولى لنصرهم وبث الرعب والهلع في صفوف اعدائهم، فتذهب ريحهم، ويلين عودهم، فلا يلبثون في ساح الوغى الا عشية أو ضحاها، والملاحظ على دعوات الأمير أنها لاعلاقة لها بهذه الدنيا، فهو يرجو ربه لجنده الصبر الجميل والنصر المبين، والفتح العظيم، والعفو الدائم، والرحمة الشاملة، وعداً من الله لعباده ومن وأوفى من الله عهدا؟[٢٥٢]

يارب إنك في الجهاد أقمتهم
فبكل خير عنهم فتفضل
يارب يارب البرايا زدهم

صـــبـــرا ونـــصـــرا دائـــمـــا بـــتـــكـــمّل

وافـــتح لـــهم مـــولاي فـــتـــحـــا بـــيـــنـــا

واغـــفـــر وســـامح بـــاإلـــهي عـــجِّل

يـــارب مـــولاي وابـــقـــهم قـــذى[٢٥٣]

في عـــين من هـــو كـــافـــر،بـــالمـــرسل

وتجـــاوزن مـــولاي عن هـــفـــواتـــهم

والـــطف بـــهم في كل أمـــر مـــنـــزل

يـــارب واشـــمـــلـــهم بـــعـــفـــو دائم

كن راضـــيـــا عـــنـــهم رضـــا المـــتـــفـــضل

يـــارب لا تـــتـــرك وضـــيـــعـــا فـــيـــهم

يـــارب واشـــمـــلـــهم بـــخـــيـــر تـــشـــمُّل

ب - الـــغـــزل:

"انفرد عبدالقادر دون كثير من شعراء عصره ولاسيما الجزائريين منهم بالإقدام الشجاع على الغزل[٢٥٤] " ذلك أن معاصريه من الشعراء - كما يرى المؤرخون- لم يكونوا إلا قضاة شريعة، أو أئمة صلاة، أو دعاة إصلاح لاهمَّ لهم في الغزل، فقدكانوا يتخوفون منه اتقاء نظرة المجتمع اليهم، فتنزهوا عنه، ولم يكن هذا الأمر يمس الجزائر وحدها آنذاك كما يذكر د. محمد السيد الوزير، " بل إن الغزل لم يكن له في البيئات العربية اتصال سند بأفضل منه فى الجزائر، فقد اصطنع الرافعي من بعد في مصر لونا جديدا في فلسفة الحب والجمال ليسوغ لنفسه الغزل[٢٥٥] " .

وقبل أن ندخل في دراسة شعر الغزل عند عبدالقادر يجدر بنا أن نقف على أهم الدوافع التي دعت الشاعر إلى التطرق إلى هذا الفن والخوض فيه .

ولعل أهم هذه الأسباب والدوافع هي علاقة الأمير بالمرأة بشكل عام ودور

الأمومة في حياته بشكل خاص.

يحدثنا محقق الديوان عن هذه العلاقة بقوله" ولعل السر في هذا الخضوع للمرأة كان من وراء اعجابه بأمه وحبه لها وشدة تعلقه بها، فقد لازمها في حله وترحاله، وسلمه وحربه، ورافقها معه إلى الأسر وأعادها إلى استنبول وبروسة ودمشق وامتنع عن الحج خشية أن يفقدها في تغيبه[٢٥٦]. ولما اختارها الله لجواره سنة ١٢٧٣ هـ حزن عليها حزنا شديدا وافتقد في شخصها إنسانا عزيزا وحبيبا غاليا "كما كان شديدا الاحترام لها يأخذ برأيها ويستشيرها حتى أنه اتهم بأنه يخضع لما تصدره من مكاتبات وتحارير ومراسلات موقعة باسمه". [٢٥٧]

وبالتأكيد فإن هذه الأم كانت تتمتع بشخصية طاغية فرضت احترامها على كل من رآها وقابلها، حتى أن " الإمبراطور لويس نابليون لما زار الأمير فى أسره بأمبواز، وعندما قدم الامير والدته قبل البرنس يدها وسألها الدعاء"[٢٥٨].

وهكذا كانت لهذه المحبة القوية والاحترام الشديد من الأمير لوالدته الأثر الفعال في تحويل محبته وخضوعه وإعجابه إلى المرأة بشكل عام وأساسي.

أما الدافع الثاني فهو سلطان الجمال، فعلى الرغم من أن شاعرنا كان " عصبي المزاج، عنيفا في الدفاع عما يعتقده أنه الحق، لايلين للقوة مهما قست وطغت، فيه شيء من عنجهية البادية وعنادها، على ليونة في القلب أمام الجمال وتراخ لعزة المرأة. [٢٥٩] "

وشاعرنا لم يكن سباقا في الإقرار بسلطان الجمال على نفس الفارس وخضوعه له، فقد سبقه إلى ذلك فرسان وأبطال وشعراء" وبخاصة منهم في الجاهلية والإسلام أو أي عصر ومجتمع كان لهم بالمرأة هذا الهيام التلقائي وارتباط فروسيتهم بمحبتها ارتباط وجهي العملة بعضها ببعض[٢٦٠] "، وفي ذلك يقول أحدهم[٢٦١]:

نحن قوم تذيبنا الأعين النجـ

ل عـــلى أنـــنـــا نـــذيب الـــحـــديـــدا

وتـــرانـــا لـــدى الـــكـــريـــهـــة أحـــــرا

را وفـي الـــســـلم لـــلـــغـــواني عـــبـــيـــدا

وشاعرنا يعترف بهذا اعترافا صريحا في أحد أبياته :

وســـلـــطـــان الـــجـــمـــال له اعـــتـــزاز

عـــلى ذي الخـــيـل والـــرجل الجـــواد

وعبدالقادر ينطلق في غزله من تراثه الإسلامي وتربيته الدينية فلا يرى في الغزل عيبا مادام بعيداً عن الإباحة ، وينحو فيه منحى روحيا ينتمي إلى التيار العذري في صدقه ، فلم يكن غزله مادياً ماجناً ، ولذلك برىء شعر الغزل عنده مما يعاب به" أليس عبدالقادر من حراس الأخلاق ويشترط بذلك مكارمها حسب التعبير النبوي ، ومن رعاة المجتمعات وحماة الضغينة ، والمعتقدات الموروثة ، فكل ذلك أدى إلى ظهور الجوانب الروحية والخلقية لا في حياته اليومية فحسب ، بل انعكس ذلك على شعره وأدبه بصفة عامة ، إضافة إلى هذا فإن النزعة الصوفية عند عبدالقادر كان لها أثر هام في توجيه فن الغزل عنده ، وذلك أنه عرف التصوف ومارسه في الجزائر وفرنسا وبروسية ، وأخيرا في دمشق ومن المعروف أن التصوف ينمي الجوانب الروحية والخلقية في الإنسان ويبعده عن الجوانب المادية الضيقة المغلقة ، ولايخفى أن الحب والغزل الإلهيان عنصران أساسيان من عناصر الشعر الصوفي في الإسلام .[٢٦٢] "

وقد آثرت وأنا أتناول فن الغزل عند شاعرنا أن أرجعه إلى نقاط تبدو واضحة من خلال الاستقرار المتأني لهذا الشعر وأولى هذه النقاط :

الجمع بين الغزل والفخر:

جعل الأمير من شخصه نقطة ارتكاز غزله فقد كان يتغزل ويفرد لنفسه مكانا في قصائده ، فهو ومحبوبه يشتركان في القصيدة لاعتزازه بنفسه ونسبه وشجاعته ، فهو

البطل الشجاع الذي تفر أمامه الفوارس وتتساقط الأبطال كلمى تحت ضربات سيفه البتار، ولكنه يقف موقفا مناقضا تماما لهذا أمام المحبوب فتخونه الشجاعة، ويفتقد الإقدام، فيغدو عاجزا لاحول ولاقوة له لايجد إلا الشكوى والأنين[٢٦٣]:

ومن عجب تهاب الأسد بطشي

ويمنعني غزال عن مرادي

وحينما يقرن شاعرنا فخره بغزله، فإنه يسعى لتأكيد هذه الحقائق ويجليها أمام حبيبه، فأقواله تصدقها الفعال، يدخل معامع المعارك لايهاب السيوف الوامضة، ولا الرماح الضاربة، في يوم تشيب لهوله الولدان، تصير هامات أعدائه غمدا لسيفه، يشق الصفوف المتلاطمة بنفس لاتعرف الخوف والتراجع وسط طلقات المدافع، ومع هذا كله يُرى صبورا متجلدا متحملا المكاره بنفس قوية، هذه النفس التي تقف أمام الحبيب خاضعة ذليلة يتملكها الخوف والرهبة، تذرف الدمع مدرارا حين دنو لحظة الفراق فلم تجد من تلك الشجاعة إلا هذه الزفرات التي تتصاعد مع أبيات الشاعر[٢٦٤]:

ومن عجب صبري لكل كريهة

وحملي أثقالاً تجلّ عن العدِّ

ولست أهاب البيض كلا ولا القنا

بيوم تصير الهام للبيض كالغمد

ولا هالني زحف الصفوف وصوتها

بيوم يشيب الطفل فيه، مع المرد

وأرجاؤه أضحت ظلاما وبرقه

سيوفا وأصوات المدافع كالرعد

وقد هالني بل قد أفاض مدامعي

وأضـــنى فـــؤادي بـل تـــعـــدى عن الحـــد

فـــراق الـــذي أهـــواه كـــهلا ويـــافـعـــا

وقـــلـــبـي خـــليٌّ من ســـعـــادٍ، ومن هـــنـــد

سلطان الجمال والخضوع له:

وللجمال عند شاعرنا سلطان عظيم ومنزلة كبرى، يدافع عنه الشاعر بكل ما أوتي من قوة الكلمة، ويعتبر أن الخضوع له ليس عيبا أو منقصة، بل إن كمال الرجل الفارس في هذا الخضوع والتذلل لاعن خوف وجبن وعجز، ولكن دلالاً وإكباراً وتقديراً لهذا الجمال، ومن هنا نرى شاعرنا يتحامل ويهاجم بشدة أولئك الذين يسيؤون بأفعالهم لجمال المرأة ويشوهون خدودها عن طريق الوشم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ولكنهم في حقيقة الأمر يجنون على تلك الخدود الندية الطرية، فيهتكون أستار الجمال فيها، فيبدو مرآها قبيحا بعد أن كانت ملهم الشعر والابداع وينكر الشاعر عليهم أن تكون لهم نفوسا حساسة تعرف للجمال حقه وللحسن منزلته[٢٦٥]:

أقـــول لـــقـــوم لا تـــفـــيـــد نـــصـــيـــحـــتي

لـــــديـــــهم، ولـــــو أبـــــديت كل الأدلـــــة

ألا فـــاتـــركـــوا ورد الخـــدود وشـــأنه

فـــتـــخـــديـــدكم في الخـــد أقـــبح فـــعـــلـــة

أيـــعـــمـــد ذو لـب، لـــخـــد مـــورد

ويـــقـــســـمه عـــمـــدا إلى شـــر قـــســـمـــة

ويتمنى الأمير على هؤلاء أن يدعوا العين واللحظ تقومان بهذه المهمة فهما أقدر وأكفأ، أفرأيتم فعل العين في الوجه الصبوح حين تلحظه، حيث تحمر الخدود، وتتورد حياء وخجلا، فتصير آية للناظرين، تزيد نار الحب اشتعالا، فينطلق العشاق يسبحون

في سماء الجمال ببديع الخالق المصور، فجمال الشيء في نضرته، وأحب الخدود إلى المرء هي تلك التي تسلم من هذا الفعل الشنيع(٢٦٦):

فبالـلحظ لا المـوسى تـخـدش وجـنـة

فـيـا ويـلـتـا مـنه ويـاطـول حـسـرتي

وإنـي لأهـوى كـل خـد مـورد

زهـا، قطٌّ لـم يمـسَـسْه مـوسى بـخـدشـة

وهيمنة الجمال على الإنسان وخضوعه له ليس من العار في شيء لأن طريق الحب ذل وتودد وتواضع لكسب رضا الحبيب وفؤاده، فالجمال ملك وطيد في جوانح أهل الهوى الأسخياء، فالعطاء حتى الفداء صدق المحبة(٢٦٧):

فـمـا فـي الـذل لـلـمـحـبـوب عـار

سـبـيل الـحب، ذل لـلـمـرادِ

رضـا المحـبـوب لـيس لـه عـديل

بـغـيـر الـذل، لـيس بمـسـتـفـاد

ويتساءل الشاعر عن هذا الخضوع والانقياد ثم لا يفتأ إلا قليلا حتى يجد الجواب الشافي في قوله(٢٦٨):

ومـاذا غـيـر أن لـه جـمـالا

تـمـلـك مـهـجـتي مـلك الـسـواد

وسـلـطـان الجـمـال لـه اعـتـزاز

عـلـى ذي الخـيـل والـرجـل الجـواد

فالكريم الجواد، والفارس الحق عند عبدالقادر، هو من يتواضع ويتكيف مع المقام، فتراه في ذل بعد عز، وبكاء ودموع بعد صبر وتجلد، وخضوع بعد رفعة لا لشيء

سوى إرضاء الحبيب وإظهار آيات الحب والإخلاص فلا جناح عليه في كل ذلك، بل إن الفعل كريم وحسن، مقابل غاية عظيمة هي الفوز بالوصال ولقاء الحبيب الذي يهون في سبيله كل عز ومجد[٢٦٩]:

وهـــذا الـــفـــعـل مـــغـــتـــفـــر وزين
إذا-يـــومـــاً - أبـــيت عـــلى مـــعـــاد
فـــإن رضـــيتْ عـــليَّ أرَتْ مـــحـــيَّـــا
بـــشـــوشـــاً بـــالـــملاحـــة، ظَلَّ بـــاد[٢٧٠]

عذاب الحبيب وتدلل المحبوب:

والأمير مغرم في شعره الغزلي برسم الصور المتناقضة التي يوردها في أبياته، مصورا حالته الكئيبة الحزينة شاكيا عذابه وآلامه، مبينا في المقابل صورة الحبيب وهو يتيه عزاً ودلالا، يمعن في تعذيب الشاعر مصراً على إنزال أشد الألم به، فكلما ازداد ذاك دلالاً وغنجاً سعى الآخر طمعاً في الوصال، فيصده الحبيب مبتعدا، يزيد في لوعة الشوق والحنين وكأن الحبيب قد أصدر حكما بالإعدام مع وقف التنفيذ، يوعد فيخلف وعده يطيل أمد الوصال لتزداد جمرة الحب والشوق التهابا فيكتوي بها الفؤاد، حتى لكأن الشاعر يقر ويذعن اعترافا بأنه آن الأوان لهذا الهجر والفراق أن ينتهي فقد ثاب إلى رشده وتاب عن أفعاله، ولأشد مايخشاه شاعرنا أن يمتد هذا العذاب إلى مالا نهاية، فتكون معه خاتمة الأمير، ويتأصل الداء فلن يجد معه الدواء الشافي، لذلك يتودد الأمير ويستعطف المحبوب ليرفع عنه هذا العقاب والعذاب فيعيد إليه الحياة من جديد[٢٧١]:

فـــإن كـــان هـــذا الـــبـــعـــد تـــأديب مـــذنب
فـــإنـــا بـــهـــذا الـــقـــدر صـــرنـــا عـــلى شـــفـــا
وإن لـــنـــخـــشى إن تـــطـــاول بـــعـــدكم
يـــصـــيـــر لـــكم ســـلـــوى فلا يـــرتجى شـــفـــا

فمنوا بلقياكم وإلا فلا بقا
وريح الفنا تسفي علينا إذا سفا

وهذا المحبوب في تيهه ودلاله يقابل دوما الإحسان بالإساءة ويعتمد البعد حتى يدنو أجل الوصال، فهو لايرعى ذمة ولا يعطي جاره حقه من المؤانسة والمحادثة، نراه يختال مبديا جماله البارع إمعانا في تعذيب الشاعر[٢٧٢]

وأطلب قربه فيزيد بعدا
قديماً من وصالٍ في نِفارِ
وهذا الظبي لا يرعي ذماماً
ولا يرضى موانسةً لجار
يتيه بدلّه ويصول عمداً
غني بالجمال، فلا يداري

وحتى المزاح لايجد عند هذا القاسي قبولا، فتراه يصد عنه رافضا وقاطعا كل أسباب الوصال واللقاء حتى ولو من باب الأمل فقط، وأمام هذا يأخذنا العجب حين نرى شاعرنا ينتابه شعور من الانبساط والفرحة متى عاتبه حبيبه ولامه ولأن مجرد سماع حديثه ولو من باب الملامة والعتاب يطفئ النار المتأججة في فؤاده، فحياة عبدالقادر وأمله معلقان برضا الحبيب وعفوه، وتفضله بالوصال معناه ديمومة السعادة والهناء، فإن الأقدار قد حكمت بالموت والفناء على نفس الأمير البائسة[٢٧٣]:

أمازحه فلا يرضى مزاحا
وأسأله المراء فلا يماري
ويعتبني فيكسو القلب بسطا
لأن العتب يطفي حر ناري
فإن هو لم يجدْ بالوصل أصلا

ويـــدني الـــطـــيف من ســـكـــنـــي وداري

أقل لـــلـــنـــفس ويك ألا فـــذوبـــي

ومـــوتـــي فـــالـــقـــضـــاء عـــلـــيك جـــار

ويظل الأمير يطالعنا بهذه الصور المتناقضة بينه وبين حبيب الفؤاد شاكيا ما يلاقيه من هذا الحب، فحبيبه قاس أحال حياته إلى عذاب، وهناءه إلى حيرة وعلى الرغم من ذلك فالشاعر يقابل الإساءة بالإحسان فهو في سعيه، دوما لراحة حبيبه يبذل نفسه ومهجته في سبيل ارضائه فيكون الجزاء جفاء وعذابا نكرانا للجميل، يريد حياتها وهي تسعى لحتفه وهلاكه، لا قتلا ولكن هجرا وصدا وبعادا، وهي اشد فتكا من الموت، فتراه يبكي وينوح، يراقب النجوم ساهرا، وهي تنعم بجميل الرقاد، وكأن الأمر لايعنيها بتاتا، تصر دوما على الصد، وتتعمد ذلك فتزيد في عذابه، لاذنب جناه سوى أنه أحب، وهل الحب جريمة ليعاقب عليها بكل هذه القسوة، فقد رأت فيه إنسانا ظلوما يستحق العقاب فناله بدون رأفة[٢٧٤]:

أقـــاسي الحب من قـــاسي الـــفـــؤاد

وأرعـــــاه ولا يـــــرعـــــى ودادي

(أريـد حـيـاتـهـا وتـريـد قـتـلـي)

بـــهـــجـــر أو بـــصـــد أو بـــعـــاد

وأبـكـيـهـا فـتـضـحك ملء فـيـهـا

وأســـهـــر وهي فـي طـــيب الـــرقـــاد

وتـــعـــمَى مـــقـــلـــتـــي إمـــا تـــنـــاءت

وعـــيـــنـــاهـــا تـــعـــمـي عن مـــرادي

وتـــهـــجـــرني بـــلا ذنب تـــراه

فـــظـــلـــمي قـــد رأت دون الـــعـــبـــاد

وأمام هذا الجفاء والصدود، يرفع الشاعر صوته شاكيا باكيا طالبا العفو والرحمة من هذا القاضي الظالم ولكن هيهات فالحبيب قد صم أذنيه وتحجر قلبه فلن يرحم ولن يعدل عن حكمه، بل كلما ازداد الشاعر شكوى ازاد الحبيب تماديا في هجره، فلم تقبل له شفاعة ولا وساطة، رافضا كل وصال وتقارب متهما عبدالقادر بالخطأ في حقه، فلن يدع كبيرة ولا صغيرة إلا احصاها كدليل اتهام، بينما نرى الشاعر في المقابل يتسامح ويغفر لها كل ما جنته في حقه إن لم نقل يبحث لها عن الأعذار والمبررات ليقنع نفسه ببراءة حبيبه[٢٧٥]:

وأشكوها البعاد وليس تصغي
إلى الشكوى وتمكث في ازدياد
وأبذل مهجتي في لثم فيها
فتمنعني وأرجع منه صاد[٢٧٦]
واغتفر العظيم لها وتحصي
عليَّ الذنب في وقت العداد
وأخضع ذلة، فتزيد تيها
وفي هجري أراها في اشتداد
فما تنفك عني ذات عز
وما انفك في ذلي أنادي

وعلى الرغم من هذا كله، فإن قلب الشاعر لايعرف اليأس ولا يعترف بالفشل والهزيمة، فأهل الهوى دوما يمنون النفس ويحاولون خداعها، تراهم يتعلقون بأوهن خيوط الأمل ينتظرون البشير حاملا إليهم الخبر السار عن رضا الحبيب وقرب موعد الوصال، وهو ما ينتظره الشاعر فعلا حين يعد حامل البشرى إن جاءه يوما بها، أن يهبه روحه ونفسه وهما أغلى ما يملك الإنسان، يتنازل عنهما الشاعر جزاء هذا المعروف بنفس راضية إدراكا منه بأن كل ما يملك لا يساوي شيئا مقابل نظرة رضا وعفو من

الحبيب : [٢٧٧]

خـــلـــيـــلي إن أتـــيت إلي يـــومـــا
بـــشـــيـــرا بـــالـــوصـــال وبـــالـــوداد
فـــنـــفـــسي، بـــالـــبـــشـــارة إن تـــرمـــهـــا
فـــخـــذهـــا بـــالـــطـــريف وبـــالـــتلاد

ويطالعنا عبدالقادر في إحدى تعبيراته الشعرية بطبيعة هذا الحب الصافي الطاهر المفعم بالإيثار ونزعة النضحية ، فلا مال الدنيا وزخرفها يصرفه عن حبه هذا ، فهو كنزه ومراده وغناه ولايبغي عنه بديلا قمة الإخلاص والوفاء[٢٧٨] :

إذا مـــا الـــنـــاس تـــرغب في كـــنـــوز
فـــبـــنت الـــعم مـــكـــتـــنـــزي وزادي

وفي قصيدته " فراقك نار" يسير فيها على نفس النهج السابق فتراه يعزف على أوتار الأنين والشكوى والفراق ، وعتاب الحبيب ، مصورا حالته البائسة من ضعف وألم وحنين يجسدها في أبيات تفوح ألما وحسرة[٢٧٩] :

أقـول لمحـبـوب تـخـلـف من بـعـــدي
عـلـيلا بـأوجـاع الـفـراق، وبـالـبـعـــد
أَمَـا أنت حـقـا، لـو رأيت صـبـابـتـي
لـهـان عـلـيك الأمـر، من شـدة الـوجـد
وقـلت: أرى المـسـكـين عـذَّبه الـنـوى
وأنـحـلـه - حـقـا -إلى مـنـتـهى الحـد

ويمعن في تصوير حالته المأساوية ، معددا صورا حزينة توحي بالشفقة والرحمة فهو العاشق الولهان الغريق الأسير الذي يحترق بنار الهجر والوجد والصد ، دموعه تنساب مدرارة ، يحاول إخفاء الأمر ومداراة حاله ، ولكنه يعجز فزفراته ودموعه وآلامه

تكشفه وتفضح سره الدفين وتجليه أمام الناس في هذه الصورة[٢٨٠]:

وإني -وحق- الله دائم لوعة

ونار الجوى بين الجوانح في وقْد

غريق أسير السقم مكلوم الحشا

حريق بنار الهجر والوجد والصد

غريق، حريق،هل سمعتم بمثل ذا

ففي القلب نار والمياه على الخد

حنيني أنيني زفرتي، ومضرَّتي

دموعي، خضوعي قد أبان الذي عندي

وعلى الرغم من هذه المعاملة القاسية التي يلاقيها الشاعر إلا أن حبيبه قد ملك عليه روحه وفؤاده، واحتل من نفسه مكانا غاليا لم يحل فيه أي كان، فاستحوذ عليه ولم يترك لغيره مكانا، يرتع فيه ماشاء ويزرع بين جنباته جذور الهوى والشوق فأمست العين تفيض معا تستجدي الرحمة والرأفة من هذا العذاب[٢٨١]:

فحلَّتْ محلاً لم يكن حل قبلها

وهيهات أن يحلل به الغير أو يجدي

وقد عرَّفَتْني الشوق من قبل والهوى

كذا والبكا - ياصاح - بالقصر والمد

ويحاول عبدالقادر أن يصور لنا قوة نفسه وصبرها على تحمل العذاب فهو أشد صلابة ومتانة من الصخر، وإن لمن الصخر لما يشقق ويذوب لو تحمل وقاسى بعض الذي عاناه الشاعر[٢٨٢]:

فلو حملتْ رضوى من الشوق بعض ما

حملتُ لذاب الصخر من شدة الوجد

ومع هذا الصبر والتجلد اللذين يبديهما الشاعر، إلا انه يعلم أن للصبر حدودا مهما طال، فيسارع إلى البحث عن هذه النهاية الحتمية لعذابه، فهل لما هو فيه من نهاية؟، لقد استطال الأمر عليه وما يخاله منتهيا إلا ونفسه مسجاة في لحده، فهل يجود الدهر ويرحم هذه النفس المعذبة فيجمعها بحبيبها ؟ أم سيكون هو أيضا شريكا في هذه المأساة؟[٢٨٣]

ألا هل لهذا البين من آخرٍ فقد
تطاول حتى خلت هذا إلى اللحد
ألا هل يجود الدهر بعد فراقنا
فيجمعنا والدهر يجري إلى الضد

وكأن مراد شاعرنا من هذا البكاء والشكوى نقل رسالة صادقة أمينة تصورحالة هذا الحبيب عسى أن يعفو ويصفح ويرحم فينال الشاعر مبتغاه ويفوز باللقاء المأمول[٢٨٤]:

وأشكوك ما قد نلت من ألم، وما
تحمَّله ضعفي وعالجه جهدي
لكي تعلمي-أم البنين- بأنه
فراقك نارٌ واقترابك من خُلْد

الشاعر والليل:

وكبقية شعراء الغزل نجد الأمير قد أفرد أبياتا كثيرة في قصائده للحديث عن الليل وشجونه، فتارة يشكوه ويتمنى زواله، وتارة أخرى تربط بينهما علاقة ود وحب وصداقة، لأنه سبيل الشاعر الوحيد للفوز بطيف الحبيب وخيال أم البنين " فما ينفك الليل والأمير شريكين متكافئين يتعاونان على استنباط الأعماق والجولان في

الآفاق[٢٨٥] "ومادام الليل فنانا، فإن ارتباط الأمير به كان قويا، فهو يشكو طوله، وتوالي ساعاته ببطء، حتى ليخال وكأن عجلة الزمن قد توقفت عن الدوران، فالنوم جفاه والسهر اضناه[٢٨٦]:

ومـــاليَ في الـــلـــذائـــذ من نـــصـــيب

تـــودع مـــنـــه مـــســـلـــوب الـــرقـــاد

ويشكو عبدالقادر لياليه فيحسن الشكوى من جفاء الحبيب وصدوده ويرسم لنا صورة تعيسة فأحزانه تتجدد مع إطلالة كل يوم جديد، يكون الشاعر قد قضى ليله يرعى نجومه، ويعد ساعاته قد جفا النوم مقلتيه اللتين لم تجدا غير الدموع ترسلها حزنا وبكاء، يبيت ليله وكأنه صب تقطعه آلام الفرقة والبعد، فيولي وجهه شطر السماك والجدي يلاحقها بعينيه فكأنه موكل بمراقبتها، متحملا طول الليل ووحشته، يرسم الآمال الكاذبة لنفسه ويمنيها بغد سعيد: [٢٨٧]

إلام فـؤادي بـالحـبـيب هـتـــــور[٢٨٨]

ونـــار الجـــوى بـــين الـــضـــلـــوع تـــثـــورُ

وحـــزني مع الـــســـاعـــات يـــربـــو مـــجـــددا

ولـــيـــلي طـــويل والمـــنـــام نـــفـــــور

وحـــتى مـــتى أرعى الـــنـــجـــوم مـــســـامـــرا

لـــهـــا ودمـــوع الـــعـــين ثم تـــفـــــور

أبـــيت كـــأني بـــالـــســـمـــاك مـــوكـــــل

وعـــيـــنيَّ حـــيث الجـــدي دار تـــدور[٢٨٩]

وعلى الرغم من هذا العذاب الذي يشكوه الشاعر من رفيقه الليل إلا أنه يهواه لا حبا في عذابه وقهره وسهره، ولكنه لحاجة في نفسه، فهو ينتظر لياليه ويرقب قدومها مراقبة العاشق المستهام، يكلف جفنيه النوم فيه، عسى أن يطرق طيف الحبيب أبواب قلبه في غفوته فينال المراد، فنراه يبث شعره شعوره بالوحدة والشوق والبكاء حاثا هذا

الطيف الكريم في دعوته لزيارته عله يرى خيال الأحبة فتخبو نار الشوق والحنين ولو إلى حين، وأي تضحية تلك التي يستعذب صاحبها العذاب والألم لقاء نظرة خيال والتمتع بجمال طيف الحبيب ولو في الأحلام: (٢٩٠)

جـفـانـيَ مـن أم الـبـنـين خـيـالُ
فـقـلـبي جـريح والـدمـوع سـجـالُ(٢٩١)

أحب الـلـيـالي كي أفـوز بـطـيـفـهـا
وأرجـو المـنى بل قـد أقـول أنـال

أكـلـف جـفـني الـنـوم عـلـيَّ أن أرى
مـثـالا لـهـا يـسـري ولـيس مـثـال

والشاعر يعلم مدى قسوة حبيبه وأن هذه الأبيات لن تكون شفيعا لديه فيسارع إلى وساطة غيره ليرسم لهذا الحبيب الصورة البائسة لهذا العاشق الوفي ويشرح لهاحاله وأحواله عسى أن يلين قلبها فترفع عنه غضبها وعقابها، والأمير يقنع بالقليل، فإذا استحال الوصال يرضى بالطيف والخيال، وهو ليس بالمطلب العزيز المحال(٢٩٢):

فـقـولـوا لـهـا إن كـنت تـرضـين عـيـشـتي
فـجـودي بـطـيف إن يـعـز وصـال

ثم أليست هذه الحبيبة هي سبب كل هذه المعاناة، جعلت الأمير رفيق الليل وحارس النجوم، وغيره ينعم بالنوم الهانئ، فليلهم لباس ونهارهم معاش يرثون لحال صاحبنا ويتمنون زوال نائبته(٢٩٣):

وقـد كـلـفـتـني الـلـيل أرعى نجـومـه
إذا نـامه المـرتـاع، بـالـبـعـد والـصـد

وأخيرا، حين يتنازل حبيب الشاعر من برجه العالي ويقدر هذا الحب والإخلاص، يبادر إلى إرسال الطيف الموعود متفضلا بزيارة عبدالقادر، فيقطع إليه دونه الصحارى

والقفار، ويتخطى العوائق، لينزل عليه وهو في غفلة منه إيذانا بانفراج الأزمة، ليهب الشاعر من هول المفاجأة فرحا لقرى ضيفه الغالي الذي طال انتظاره، فيرحب به، ويبذل مسعاه لتوفير كل أسباب الكرم والضيافة، فتراه-من فرحته- يفرش لها خديه ليطأهما الحبيب وهما على غلاوتهما، لايضن الشاعر بشيء عن هذا الزائر الكريم، ويبدأ الأمير وحبيبه يتطارحان أطراف الحديث من حب وعتاب وشكوى وأنين، فقد ذابا في مناجاتهما وأصبحا مركز العالم لايشعران بما يحيط بهما، والأمير لاينفك يصف عذابه وحرقة جمرات الهوى التي أغرقته في دموع الشوق، وهو صابر ينتظر الفرج وساعة الخلاص كالتي يحياها الآن نشوان سكران بكؤوس الهوى والغرام[٢٩٤]:

تعسفت الفيفاء في غسق الدجى

فكم قطعت نهرا من الخيل والخال[٢٩٥]

أتتني- فدتها النفس-في حين غفلة

فقلت لها: أهلاً فذا وقتنا خال[٢٩٦]

وأفرشتها خدي وقلت لها طئي

فلا تحسبي خدي عليك بذي خال[٢٩٧]

ولما تطارحنا الأحاديث بيننا

وأحلى تلاقي الخل بالمنزل الخال[٢٩٨]

وأبثثْتُها وجدي وما بين أضلعي

من البعد والأشواق والدمع كالخال[٢٩٩]

وحدثتها عن لوعتي وتحرقي

وقطع الليالي بالتأمل كالخال[٣٠٠]

ولولا الأماني كنت ذبت من الأسى

أقول، كئيبٌ نال ذلك من خال[٣٠١]

أروّح نفسي بالأمانيَ، راجياً

سـمـاحــة دهــر، ضنّ، يــرجـع كــالـخـــال[٣٠٢]

ولاشك أن هذه الأبيات تخلو من جيشان العاطفة وصدق الشعور وانما هي أقرب إلى إظهار البراعة اللغوية، لكنها -على كل حال -نموذج لكتابات كثيرة غزلية شاعت في المشرق والمغرب في عصر الأمير عبدالقادر.

ج - الـوصـــف:

الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه، وهو مناسب للتشبيه مشتمل عليه وليس به لأنه كثيرا ما يأتي في أضعافه، فالفرق بين الوصف والتشبيه أن هذا اخبار عن حقيقة الشيئ وأن ذلك مجاز وتمثيل، وأحسن الوصف مانعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا للسمع. [٣٠٣]

وإذا ماعدنا إلى فن الوصف عند الأمير فإننا نجده على نمطين، فتارة يفرد قصائد مستقلة تتحدث عن هذا الجانب، وتارة أخرى نجد أبياتا يصف فيها عبدالقادر ماشاء، ولكنها بين ثنايا قصائد تتناول موضوعات شتى.

والمتصفح لفن الوصف عند شاعرنا يلاحظ أنه ينصب حول نقطتين رئيسيتين هما: الوصف البدوي، والوصف الحضري، وسنحاول أن نتعرض لكل جانب على حده لنعطيه حقه من الدراسة والتحليل.

١ - الوصف البدوي:

تمثل هذه المرحلة الأولى من حياة شاعرنا التي عاشها في الجزائر، ولعل أهم قصائده في هذا الجانب قصيدته الشهيرة "ما في البداوة من عيب"[٣٠٤] وتأتي مناسبتها في أن الأمير كان أسيرا في "أمبواز" وكان موضع التكريم من علماء فرنسا ومفكريها يراسلونه ويراسلهم، فبعث إليه بعض أمرائهم يسألونه رأيه فيما اختلفوا فيه: هل البدو

أفضل أم الحضر؟ فرد عليهم بقصيدة انتقم فيها لنفسه وللبداوة" وامتهن-بكياسة بليغة- دعاوى الامتياز العنصري للرجل الأبيض وما في المدينة من نقائص وحرمان، وكأنه يرى رؤيا أبى العلاء أن فقدان العز في الحضر[٣٠٥] "

استهل عبدالقادر رائيته بتوجيهه لوم وعتاب رقيق لأولئك الذين ينتصرون لأهل الحضر ويقفون إلى جانبهم، ويلومون سكان البوادي لبساطة عيشهم ولامناص أن هذا الحكم مرده جهل بحياة البداوة وفضائلها، حقا إن الجهل في مثل هذا الأمر ضرر عظيم، ولكن عذر هؤلاء -دعاة المدينة-أنهم لايعرفون ما في البادية من مزايا ومناقب، ويوم تتاح لهم فرصة العيش فيها ويرون بأم أعينهم هذه الحياة الهانئة البسيطة، ويعايشون أحداثها التي سيتلوها الأمير شعرا ويجسدها صورا نابضة بالصدق وحرارة الشعور، فلا شك حينذاك أنهم سينتصفون لأنفسهم ولأهل البادية، و يكون بذلك حكمهم أساسه العدل والقسط "[٣٠٦] .

يـاعـاذراً لامـرئ قـد هـام في الحـضـر
وعـاذلاً لمحب الـبـدو والـقَـفَـرِ
لا تـذمُـمَنَّ بـيـوتـاً خف مـحـمـلـهـا
وتـمـدحن بـيـوت الـطـين والحـجـر
لـو كـنت تـعـلـم مـافي الـبـدو، تـعـذرني
لـكنْ جـهـلـتَ وكم في الجـهل من ضـرر

فياعاذل البدو في معيشتهم، لو اطلعت على جمال الصحراء فستأسرك هذه المناظر الجميلة البديعة، فحيثما جلت ببصرك تواجهك لوحة فنية من إبداع الخالق المصور، فبساط رملها كأنه الدر في صفائه ونقائه، يضم بين جنباته رياضا غناء تشابكت ألوانها، وتداخلت لتعطيك أروع منظر تقع عليه العين، أما هواؤها فحسب المرء أن يهب عليه لتسري في رئتيه دماء صافية نقية، يستنشق منه ما طاب له لم يمسه تلوث فهو صاف سليم

ينعش الروح ويبعث الجد والنشاط ، ولا تسل أيها اللائم في حب البادية عن جمال صبح انبلج بعد ليلة ممطرة عاصفة ، يقف المرء على ربوة من ربى هذه الصحراء ، فتتجسد أمامه اللوحات الفنية التي لاتجد لها مثيلا ، فهذه أسراب الظباء والغزلان والمها خرجت لترعى أطيب الشجر وهي تقفز هنا وهناك فرحة منتشية بهذا المزن الذي أحيا الأرض بعد موتها فأنبتت من كل زوج بهيج ، لتبعث الحياة من جديد في هذه الصحراء ، وما من شك أن هذا الجمال البدوي قادر على مسح كل صور الحزن والغم التي تنتاب الإنسان ، ويحل محلها إحساس بالفرح والسرور والانبساط والراحة :

أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقيا
بساط رمل به الحصباء كالدررِ[٣٠٧]
أو جلْتَ في روضة قد راق منظرها
بكل لون جميل شِيّقٍ عطر
تستنشقنَّ نسيما طاب منتشقا
يزيد في الروح لم يمرر على قَذَر
أو كنت في صبح ليل هاج هاتنه[٣٠٨]
علوت في مرقب أو جلت بالنظر
رأيت في كل وجه من بسائطها
سرباً من الوحش يرعى أطيب الشجر
فيالها وقفة لم تبق من حَزَنٍ
في قلب مُضنىً ولا كداً لذي ضجر

وهذه الحيوانات التي وجدت في الصحراء مرتعا لها تغدو وتجيء بكل حرية وطلاقة ، ليست بمأمن من مخاطر المنون ، فالشاعر وصحبه يتربصون بها ويباغتونها في أوكارها وآجامها ، فهي دوما في خوف وهلع تعدو هاربة من سهام الموت التي

يرسلها عبدالقادر والذين معه، فكم من ظليم وقع في المصيدة تاركا وراءه نعامته ثكلى وفراخه صغاراً زغب الحواصل، بل إن الأمر لا يقتصر على هذه الحيوانات فقط فحتى الصقور والحمام وكل من في الجو معرض أيضا للقنص فلاشيء يقف أمام هؤلاء البدو، فكل ما في هذه الصحراء بأرضها وسمائها رهن سهامهم وأقواسهم التي لا تحيد عن هدفها أبدا(٣٠٩).

نباكر الصيد أحيانا فنبغته

فالصيد منا مدى الأوقات في ذعر

فكم ظلمنا ظليماً في نعامته

وإن يكن طائرا في الجو كالصقر

ثم ينقلنا الأمير في هذا الوصف إلى لوحة فنية جميلة من حياة البادية، وهي صورة الحل والترحال أساس حياة العرب في صحرائهم، فهم دوما في تنقل لايستقرون في مكان واحد يسعون وراء الماء والمرعى لايهدأ لهم بال ولايستقر لهم مقام وقرار، يتخذون الإبل مطية وقد أمست كشقائق النعمان في احمرارها، ومن المعروف أن البدو تعشق اللون الأحمر وقد ورد في أشعارهم مايدل على ذلك(٣١٠)

ويعرج الأمير بعد هذا الوصف إلى تصوير عيون الصبايا والعذارى وهن يسترقن النظر من ثقوب الستائر فيشبه هذه العيون بالرقاع التي تخاط للستار، ومنه قول الشاعر المثقب العبدي: (٣١١)

ظهرن بكلّةٍ وسدلْنَ رقماً

وثقّبن الوصاوص للعيونِ

أرين محاسنا وكنَنَّ أخرى

من الأجياد والبشر المصون

ويمضي الركب يتهادى في سيره على أنغام الحداة، وهم ينشدون أحلى الألحان بأصوات جميلة فاقت في أدائها ونغمها كل أنواع الآلات الموسيقية من ناي وعود، لأنها أصوات طبيعية صافية تشدو ألحانها على الفطرة والسليقة، فتمزج تلك الأصوات لتخلق جوا فنيا شاعريا، يخفف من مشاق السفر، فلا يشعر بالعناء أحد، ويحيط بهذه القوافل رجال أبطال أشداء يحرسونها ويدفعون عنها الأذى على صهوات خيل سال عرقها كرا وفرا، فالجميع في حذر يراقبون الطريق حماية للعرض والمال والشرف، وقد يتسلى هؤلاء الفرسان بين الحين والآخر بالصيد فتراهم يطاردون الظبا وحمر الوحش يسابقون الريح للحاق بها، فلا ينجو منها إلا من رحم ربك، أما الباقي فيخر صريعا تحت سهام هؤلاء الفرسان ليعودوا بما غنموا إلى الركب فتزداد الفرحة ويعم السرور: [٣١٢]

يوم الرحيل إذا شدّتْ هوادجنا
شقائق عمَّها مزن من المطر
فيها العذارى وفيها قد جعلن كوى
مرقعات بأحداق من الحور
تمشي الحداة لها من خلفها زجل
أشهى من الناي والسنطير[٣١٣] والوتر
ونحن فوق جياد الخيل نركضها
شليلها زينة الأكفال والخصر
نطارد الوحش والغزلان نلحقها
على البعاد وماتنجو من الضمر

ويظل الأمير ينعطف للجمال البدوي الفطري الأخاذ البعيد عن الزيف والتكلف، فيرسم لنا لوحة أخرى لهذا الركب وهو يحط عصا الترحال فيعم النشاط ويتسابق الجميع لتنظيم الحي ودك أوتاد الخيام، خيام نظيفة نقية من الأوساخ والقذارة

تنصب على بساط كالمسك، وقد انتظمت هذه البيوت في شكل فني بديع تشع بأنوارها كأنها الأنجم الزهر التي تزين السماء الصافية في ليلة هادئة مقمرة: [٣١٤]

نـروح لـلـحي لـيلا بـعـدمـا نـزلـوا

مـنـازلاً مـابـهـا لـطْخ من الـوضـر [٣١٥]

تـرابـهـا الـمـسك بل أنـقى وجـاد بـهـا

صـوب الـغـمـائم بـالآصـال والـبـكـر

نـلـقى الخـيـام وقـد صـفَّتْ بـهـا فـغـدت

مـثـل الـسـمـاء وهَتْ بـالأنجم الـزهـر

ولتعليل حكم الأمير بتفضيل البادية على الحاضرة يستدل بآثار الأولين البعيدة عن الكذب والزيف ومؤداها أن الجمال والحسن في هذه الحياة لايبدو إلا في مظهرين هما: بيت من الشعر تطرب لسماعه الآذان وتنشي بموسيقاه النفوس، أو بيت من الشَّعر ينصب في مكان هادئ يسمو فيه ساكنه عن هذا العالم المادي ليعيش لحظات مريحة بعيدا عن الضوضاء والفوضى والتعب: [٣١٦]

قـال الأُلى قـد مـضـوا قـولا يـصـدّقه

نـقلٌ وعـقل، ومـا لـلـحق من غِـيَـر

الحـسن يـظـهـر في بـيـتـين رونـقـه

بـيت من الـشِّـعـر أوبـيت من الـشَّـعـر [٣١٧]

ويستكمل عبدالقادر صوره بلوحة بدوية أخرى وهى صورة العشي أوان عودة قطعان الماشية أوبتها إلى مضارب القوم وهي ترفع أصواتها بالثغاء والخوار فيختلط هذا مع وقع حوافرها فكأنها أصوات الرعد بعد ليل كاد أن ينجلي فتدر ألبانها شرابا طهورا فيه صحة وشفاء لشاربيه، وكما أن لكل بيئة وسيلتها المثلى للانتقال والسفر، فإن الإبل هي سفن الصحراء، ولكنها أوفر أمنا، وأريح ركوبا، وأضمن سلامة إلى جانب

صبرها الطويل وتحملها لمشاق الصحراء[٣١٨]، فلا مجال للمفاضلة بينها وبين الفلك التي تمخر عباب البحر، لما يكتنف راكبيها من الأخطار والكوارث، فالموت دوما متربص بهم، وهو ملاقيهم أينما كانوا في عرض اليم، فقد وضحت البينة وبانت الحجة بأدلة الأمير التي استقاها من محيطه وبيئته وهي ملازمة للصدق دون ريب.[٣١٩]

أنعامنا إن أتت عند العشيِّ تَخَلْ

أصواتها كدويّ الرعد بالسحر

سفائن البر بل أنجى لراكبها

سفائن البحر، كم فيها من الخطر

وينتبه الأمير وهو الخصم والحكم، إلى أدق الأمور، فثمة نوع من الصدق والإخلاص وحسن المعاملة والابتعاد عن الغش والاحتيال حتى في أبسط الأشياء وهو الحليب، الغذاء الأساسي لأهل البادية، فهو صاف خالص لم يخالطه ماء، بينما يغش عند أهل الحضر ابتغاء الكسب الحرام، بالإضافة إلى امتياز حليب النوق عن البقر:[٣٢٠]

شرابها من حليب، مايخالطه

ماء، وليس حليب النوق كالبقر

ويرد الأمير ردا قويا على أولئك الذين استباحوا أرضه ونهبوا أمواله وشردوا شعبه ثم جاؤوا يسألونه ويحكموه فيما نشب بينهم، فيوضح لهم أن أموالهم ليست في مأمن ولا بمنأى عن الفرسان العرب الأبطال الذين يغيرون عليها فيغنموها ثم تقسم بينهم بالعدل والقدر[٣٢١]:

أموال أعدائنا في كل آونة

نقضي بقسمتها بالعدل والقدر

وبعد هذا ماذا بقي من عيب تذم به البادية وأهلها، أتعاب على مروءة عالية

وأخلاق سامية، وشجاعة عنترية، وكرم حاتمي، وصحة أجسام، وصفاء عقول وعافية دائمة، وحرية وكبرياء شامخين؟ فإذا كانت هذه عيوبا ومساوئا فما قولك إذن في الحضر وأهله، فهات نقيض ماذكره الشاعر مع البادية وأهلها، ثم قارن ووازن ستجدن أن حكمك سيكون عادلا إذا انتصرت للبدو وانتصفت لهم، أما إذا نأيت عن الصدق والحق معاندا فما لك غير قول الأمير وهو يردد: [٣٢٢]

لوكنت تعلم ما في البدو تعذرني
لكنْ جهلتَ، وكم في الجهل من ضرر
ما في البداوة من عيب تذم به
إلا المروءة والإحسان بالبِدَر [٣٢٣]
وصحة الجسم فيها غير خافية
والعيب والداء مقصور على الحضر
من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى
فنحن أطول خلق الله في العمر

٢ - الوصف الحضري:

وكان نتيجة للاستقرار الذي عاشه الأمير في دمشق وبقية الحواضر الأخرى بعد أن أطلق سراحه وابتعد عن حياة البادية بما فيها من حل وترحال، ويمتاز وصفه في هذه الفترة بميزتين هما، الوصف النسخي الحسي التقريري والتشخيصي الوجداني. [٣٢٤].

الوصف النسخي الحسي التقريري: وللشاعر في هذا النوع بعض القصائد والمقطوعات التي يصف فيها المظاهر والأشياء المادية الحسية فينقلها لك نقلاً صادقاً واقعيا، بل قل يصورها تصويرا فوتوغرافيا دون أن يضفي عليها من أحاسيسه ومشاعره، فهي تفتقر إلى ذلك الشعور المتدفق بالحرارة التي نجدها في الوصف الوجداني التشخيصي.

ومن أجمل قصائده في هذا الجانب قصيدته " جنات دمر[٣٢٥] " التي يصف فيها قصرا بناه هناك للاصطياف والاستجمام.

يستهل عبدالقادر قصيدته بدعوة مفتوحة لزيارة هذه المنطقة وأباطيحها حيث تنتشر الرياض الزاهرة الزاهية، والمياه الجارية النقية الشبيهة بمياه نهر الكوثر بالجنة، تنساب في جداول تتلوى كأنها ثعابين في زحفها: "[٣٢٦]

عج بي-فديتك-في أباطح دمر

ذات الرياض الزهرات النضَّرِ

ذات المياه الجاريات على الصفا[٣٢٧]

فكأنها من ماء نهر الكوثر

ذات الجداول كالأراقم جريها

سبحانه من خالق ومصور

ويتابع الشاعر وصفه لبقية المظاهر الحسية لهذا الجمال الطبيعي، ناقلاً المشاهد نقلاً حسياً دقيقا، ساعده في ذلك كثرة التشابه، وهذا النسيم العليل الطيب يفوق في عطره رائحة المسك والعنبر، وتلك الطيور ترسل أنغاما لتشكل بأحلى الألحان والترانيم، تسبح بحمد الخالق المبدع، فتتداخل زقزقاتها لتشكل سيمفونية رائعة تفوق في موسيقاها ألحان الناي والمزمار، ولذلك فلا غرو أن تكون"دمر" محطة التقاء المتناقضات، ففيها الزهاد والعباد مابين أذكار وتذكر يسبّحون ويهللون وهم يرون عظمة الخالق تتجلى في بديع صنعه، وإلى جانبهم تجد حلقات اللهو والمجون والعبث يمرح أصحابها ويتسامرون ناسين هموم الحياة ومشاكلها يعيشون لحظاتهم الحلوة ضحكا ولعبا، وبذلك أمست هذه المنطقة -بجمالها- ملتقى هذه الشرائح ففيها العبادات والطهارة ومافيها من لذة روحية معنوية، وفيها الزهو والعبث وما يتبعها من لذائذ مادية جسدية حسية[٣٢٨]:

ذات النسيم الطيب العطر الذي

يـغـنـيك عن زُبـد[٣٢٩] ومـسكٍ أذفـر[٣٣٠]

والـطـيـر في أدواحـهـا مـتـرنـم

بـرخـيم صـوت فـاق نـغـمـة مـزهـر

مـغـنى به الـنـسّـاك يـزهـو حـالـهـا

مـابـين أذكـار وبـين تـفـكّـر

مـاشـئت أنْ تـلـقى بـهـا من نـاسك

أو فـاتكٍ في فـتـكـه مـتـطـور

ولتأكيد هذه الحقائق الجمالية يعمد الشاعر إلى ضرب مقارنة بين جنات دمر وبين جمال "الرصافة والسدير وشعب بوان" وهي من أهم المعالم الرائعة التي كثيرا ما تغنى بها الشعراء لجمالها، ولكن أنى لهذه من تلك، فجمال دمر وحسنها قد فاق كل شيء فلا مجال للمفاضلة بينها وبين أي مكان آخر فهي جنة الله في أرضه: [٣٣١]

أين الـرصـافـة[٣٣٢] والـسـديـر وشـعـب بـوّ

ان[٣٣٣] ...إذا أنـصـفـتـهـا من دمـر؟

وفي قصيدته التالية" غلاء الدار بالجار[٣٣٤] " يتحدث فيها الأمير عن ذكرياته الحلوة الجميلة التي قضاها في مدينة "برسا" حتى فارقها مكرها، بعد أن كثرت فيها الزلازل، فاستحالت الحياة معها فبارحها، ولكنه ظل يحن إليها، وإلى معالمها من مساجد وقصور ورياض وأنهار قضى بها أحلى أيام حياته برفقة صحبه الكرام الذين غمروه بودهم وإحسانهم، فلم يستطع لفراقهم سبيلا.

فحبها قد تمكن منه وانغرس في فؤاده فكيف ينسى ذكريات وأحباب كان عهده بها قريبا، يكلف نفسه النسيان، ولكنها تأبى ولاتحتمل: [٣٣٥]

أبى الـقـلـب أن يـنـسى المـعـاهـد من بـرسـا

وحـبـي لـهـا بـين الجـوانـح قـد أرسـى

أكلّفه سلوانها وهو مغرم

فهيهات أن نسلو وهيهات أن ينسى

وكيف لا يحزن شاعرنا ولا يتألم لفراق "برسا" هذه المدينة التي يؤمها الناس من بدو ومن حضر، يقصدها القريب والبعيد، تشد اليها الرحال من كل فج ليشهد الناس جمال طبيعتها وكرم أهلها الأفاضل الأطهار: [٣٣٦]

بلاد لها فضل على كل بلدة

سوى من يشدُّ الزائرون لها الحِلْسا

عليَّ مُحال بلدة غيرها أرى

بها الدين والدنيا طهورا ولا نجسا

ويتخلص الشاعر بعد وصف حاله ومايقاسيه من ألم الفراق وعذاب البين من هذه البلدة، إلى رسم مظاهر ومعالم هذه المدينة، فجامعها المشهور لا يدانيه جامع آخر في هندسة عمرانية وحسن بنائه، ترى فيه القوم حلقات منكبين حول علماء ومشايخ أفاضل ينهلون من ينابيع العلم والثقافة، غذاء لعقولهم وزادا لألبابهم، أما أمير هذه البلدة الطيبة فقد أكرمه الله بجميع الصفات المحببة فأمسى ملجأ لكل شريد وملاذا لكل محتاج، لايريد من ذلك جزاء ولا شكورا: [٣٣٧]

وجامعها المشهور لم يك مثله

به العلم مغروس به كم ترى درسا

وسلطانها أعني الأمير رئيسها

به افتخرتْ برسا فأعظِمْ به رأسا

ويبلغ الشوق مداه بالشاعر، فيتساءل هل سيكتب له العمر ثانية ليؤوب إلى هذه البلدة الجميلة، فيحل برياضها وحدائقها الغناء، فتطيب نفسه ويهدأ باله وهوينتقل بين أحيائها يسترجع ذكرياته الماضية وأيامه الخوالي، فكل من حل "ببورسة" حزينا مهموما

يمسي بلا شك فرحا مسرورا، ينزاح البأس والهم عن نفسه، خاصة أيام الأعياد التي تشهد فيها المدينة من مظاهر الزينة والبهجة مالا عين رأت ولاأذن سمعت، فترى الناس فيها في هرج ومرج فرحين، قد ابتعدوا عن التكلف والوقار فاندمجوا في هذا الجو، فهم في فرحتهم سواء: [٣٣٨]

ألا ليت شعري.هل أحل رياضها؟

"وبِنار باشَ[٣٣٩] " هل أطيب به نفسا؟

فيصبو بها في العيد، من ليس صابيا

ويفرح محزون الفؤاد، ولا يأسى

ويختتم الشاعر أبياته بالحديث عن سكان هذه البلدة وما يتمتعون به من أخلاق عالية وشمائل سامية وفضل عميم عليه، فقد أمن بينهم بعد خوف، وأنس بعد وحشة، داعيا لهم ولبلدهم باليمن والخير والبركة: [٣٤٠]

أناس بهم أهلي سلوت وبلدتي

وفي كل آن قد رأى ناظري، أنسا

مكارم أخلاق وحسن شمائل

ولين طباع واللطافة لا تنسى

سقى الله غيثا رحمة وكرامة

أراض به حل الأحبة من برسا

وفي قصيدته "بمن أعتاض عنك[٣٤١] " ينحو الشاعر نفس المنهج في وصفه، فتارة يصف مدينة "برسا" بعد أن غادرها واليها وما آل إليه حالها بعده، فقد أمست البلدة وكأنها عجوز شمطاء، فقدت كل معالم الحسن والجمال، بعد أن كانت عروسا حسناء، ذات غنج ودلال تفاخر بقية الحواضر ازدهارا وعمرانا وحسنا[٣٤٢]:

ألا فاقْرِ الخليل، خليل باشا

سلاماً طيباً عبقاً نفيسا

له قل: ياشقيق الروح عني

علام هجرت بلدتنا بروسا

لقد كانت تفاخر كل مصر

وتطلع من شمائلكم شموسا

فعادت بعدكم شمطا عجوزا

وكانت تجتلي بكمُ، عروسا

فهذه سوحها وأسواقها أمست آثارا دارسة لاحياة فيها بعد أن كانت تعج حركة ونشاطا، يؤمها التجار والزوار ليشهدوا منافع لهم، فمع فراق هذا الوالي لبلدته تغير كل شيء فأصبح المكان قفرا موحشا وتغيرت الأنسة وحشة والحركة والحياة هدوءا وصمتا فأمست المدينة أشبه بأطلال دارسة. تثير الأسى فمع فراق هذا الوالي لبلدته تغير كل شيء، حتى الزمان تبدل وتجهم، فلا تراه إلا عبوسا كئيبا، فالخسارة كبرى والمصيبة جليلة: [٣٤٣]

وعهدي سوحها بالوفد ملأى

فأضحت بعدكم خُلْواً دروسا[٣٤٤]

وكنت لنا بها غيثا مريعا

وكهفاً مانعاً ضرا وبوسا

وكان لنا الزمان بكم ضحوكاً

فصار لنا بفقدكم عبوسا

بمن أعتاض عنك فدتك نفسي

وكنت بقربكم فرِحَاً أنيسا

الوصف التشخيصي الوجداني:

وفيه يجسد الشاعر أو يعرض في وصفه لصوره في إطار من الحيوية والحركة والحياة، ويبدو ذلك في بعض المقطوعات الشعرية التي برزت فيها مقدرة عبدالقادر الفنية في المزج بين المادة والروح بعث الحياة في الشيء المراد وصفه، فتراه متحركا تسري فيه الحياة يعيش مع الشاعر ويشاركه الحالة النفسية التي يمر بها:

دعي الشاعر ذات مرة إلى بستان في " قبا" بالحجاز فأثاره منظر الماء المتدفق من ناعورة البئر على حوضه، وانبجاسه بعد ذلك ساقية لطيفة تتلوى بين الأشجار، فذكره ببلاده، فنقل لنا الأمير هذا المنظر في صورة مغايرة لما ألفناه عنده سابقا، فهو يغوص في أعماق الصورة ويربطها بحالته الشعورية التي كان يعيشها وهو بعيد عن بلدته" دمشق " هاجه المنظر وأثار في نفسه كوامن الشوق والحنين، فأسقط حالته هذه على تلك الصورة وكأنها حي يناجيه الشاعر ويبثه آلامه وأحزانه، فما بغية الأمير العود والورد، لكن أمله هو ما يرمز إليه هذا الشيء: (٣٤٥)

تبخَّرْ بعود الطيب لازلت طيِّبا
ورشَّ بماء الزهر - ياخِلُّ - والورد
وما بغيتي هذا ولكنْ تفاؤلا
بعَودٍ إلى عُودٍ ووِرْد إلى ورد

وفي أبياته التي يصف فيها الشاعر ناعورة استطاع الأمير أن يقوم بعملية إسقاط لذاته على هذه الناعورة، فإذا هي حية تدب فيها الحركة والحياة، فلم تعد ذاك الشيء الحسي المادي الجامد، بل استحال أمام خيال الشاعر إلى كائن بطريقة تشخيصية يبثه شكواه ويناجيه، فما تلك الناعورة الآن إلا صورة لذلك العاشق الولهان والحبيب الذي أضناه الشوق فسالت مقلتاه دمعا فتراه يطاطئ الرأس تارة حزنا وأسى، ويرفعها أخرى

بالبكاء، وكأنه وليد يلقم الثدي مرة ويصد ثانية فيعلو بكاه: [٣٤٦]

وناعورة ناشدتها عن حنينها
حنين الحوار والدموع تسيلُ
فقالت وأبدت عذرها بمقالها
ولِلصدق آيات، عليه دليل
ألست تراني ألقم الثدي لحظة
وأدفع عنه، والبلاء طويل
وحالي كحال العشق بات محالفا
يدور بدار الحب، وهو ذليل[٣٤٧]
يطاطئ حزنا رأسه بتذلل
ويرفع أخرى، والعويل عويل

وفي قصيدته "أعرني قلبا[٣٤٨]" التي أنشدها الأمير مصورا حالته بعد أن نأى عنه إخوته وتركوه أسيرا وحيدا بفرنسا ولجأوا إلى العيش في مراكش، تبدو نفسية الشاعر التعيسة الحزينة التي أنهكتها سنين الأسر والسجن وآلام البعاد والفراق، فهو دائم الحنين والشوق لإخوانه الذين تركوه معذبا، يلاقي صنوف الألم والحرمان لاعزاء له إلا تلك الزفرات والأنات التي لن تستطيع التحليق لوصل إخوته الذين لم يرحموا حاله: [٣٤٩]

ألا إن قلبي يوم بنتم[٣٥٠] **وسرتم**
غدا حائما خلف الظعون يطيرُ
يقاسي مرار الموت من ألم الجوى[٣٥١]
فمالِيَ إلا أنَّة وزفير
رحلتم وسرتم لو رحمتم فبينكم
لحَظِّيَ يومٌ للبلاء عسير

وشاعرنا كان ينتظر هذا الفراق الصعب ويتهيأ له، وكان يظن أن صبره سيكفيه

د - الـــمـــدح:

لا يمدح الكاتب بالشجاعة ولا الفقيه بالكتابة ولا الأمير بغير حسن السياسة ولا تخاطب النساء بغير مخاطبتهن ولكن يمدح كل أحد بصناعته وبما فيه من فضيلة ويهجوه برذيلته ومذموم خليقته . . . فإذا وضعت الأشياء في غير مواضعها قصرت عن بلوغ أقصى مواضعها[٣٥٣] .

ومادام الهجاء محظورا في أدب عبدالقادر لعلو همته وسمو أخلاقه، فقد حرم على نفسه السخرية والشتم والقذف، فلا بد أن يكون مدحه كثيرا .

وإذا كانت هذه القواعد والضوابط التي أشار إليها قدامة هي أساس المدح فما هو موقف الأمير منها؟ وهل أن شعوره قد طابق هذه المواصفات أم لا؟

إن أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ وهو يتبع فن المدح عند الأمير عبدالقادر هو ابتعاده عن التزلف في عصره" فإنه يذهب فيه وجهة للنقد مختلفة فيرى ضرورة اعتماده على الصدق الفني، وفق مذهبه الأخلاقي، ليس بالنسبة لقائل الشعر فحسب، وإنما لابد من الصدق بالنسبة لفاعل البر ومحسن المثوبة، وإذا جاء أحد يمزح فيجب أن لا يقول إلا حقا، فكيف إذا جاء يمدح، فعبدالقادر إذن أحد المداحين القلائل في تاريخ الأدب العربي الذين لا يعرفون بالهجاء من باب معرفتهم بالمديح، وقيامهم بهما معا، حيث ارتبط نوع من المديح الكاذب بنوع من الهجاء الظالم في تاريخنا هذا ."[٣٥٤]

وسواء لقيت مدائح عبدالقادر استحسان النقاد أم لم تلق فإن له فكرة أو مبدأ أن مدائحه لابد أن تخضع لما اتفقت عليه أحكام الشريعة وآدابها وتقاليد الفروسية، ونوازع النفس الشريفة، وأعراف المجتمع، ودواعي الصدق، ولهذا يكثر أن يكون موضوع المدح جماعات لا أفراد، ويجيء نصيبه من الفخر بنفسه بين أنصبة هؤلاء في قصيدة مشتركة ومن خلال القراءة المتأنية لشعر المدح عند عبدالقادر، نلاحظ أن مدحه

ينصب في ثلاثة محاوروهي : المدح الصوفي- المدح السياسي- المدح الادبي ، وسنحاول أن ندرس كل نقطة على حدة لنوفي فن المدح عند الأمير حقه من الدراسة والتحليل .

١ - المدح الصوفي:

لقد مر بنا من خلال ما سبق أن الأمير نشأ في أسرة دينية محافظة غرست في نفسه حب العبادة والتقوى ، والزهد في الدنيا ، لذلك فلا عجب أن نجده ينحو منحى صوفياً خلال حياته ، ويتخذ أقطاب الصوفية أساتذة ومشايخ له يمدحهم ويعظمهم محبة لهم وإرضاء لهوى في نفسه . ومن هنا انبثق مدحه الصوفي من خلال خضوعه وتذلله لشيوخه المتصوفة على أن الأمير لم يتعرض في مدحه الصوفي إلا لشيخين فقط من شيوخه[٣٥٥] وهما الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني ، والشيخ محمد الفاسي . وعبدالقادر لم يتعرض في مدحه لشيخيه إلى النواحي الشكلية المادية فلم يعدد مناقب ممدوحيه من قوة وجاه وغنى ، بل نراه يلح على الجانب المعنوي الخلقي الديني ، وهذا ما جعل قصائده هنا " تعبر عن المدح حقا حتى الغزل ، فليس ثمة استنفار لقتال ولا حاجة لغير العلم والعمل به ، والدعوة إليهما كليهما . "[٣٥٦]

ففي قصيدته الميمية الأولى التي افتتح بها شاعرنا عهده بالمدح الصوفي والتي نظمها عبدالقادر عندما اختار له الفرنسيون الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني الذي يعتبر من أقطاب الصوفية المشهورين[٣٥٧] ليؤنسه في وحدته في منفاه عندما كان الأمير أسيرا بأمبواز .

فقد عاجل الأمير شيخه بقصيدة تنم عن إستقبال متفائل ، وترحيب عظيم برزت فيه رحابة الصوفية ورومانسيتهم ، فلطالما عمد الشاعر إلى مساءلة الرِّكَاب تشوقا إلى الشيخ ، ولم يلبث إلا قليلا حتى أتته البشرى تبث الأمان وترجوه ، فهذا اليوم الموعود ، هو بمثابة عيد عند الشاعر بل أفضل ، لأنه سيفوز فيه بلقاء هذا العارف بالله ، فأيام

النكد والهم والوحدة قد ولت بلارجعة، فالحلم أمسى حقيقة، فلتهنأ نفس الأمير بهذا اللقاء حتى أنه يقدم نفسه الغالية فداء لهذا الحبيب وثمنا لهذا اللقاء، دون مامنٍّ ولا ندم، وتلك لعمري أسمى آيات الإيثار والمحبة: [٣٥٨]

أهلاً وسهلاً بالحبيب القادم
هذا النهار لديَّ خير مواسمِ
جاء السرور مصاحبا لقدومه
وانزاح ماقد كان قبل ملازمي
أفديك بالنفس النفيسة زائرا
من غير مامنٍّ ولست بنادم
طالت مساءلتي الركاب تشوقاً
لجمال رؤية وجهك المتعاظم

لقد بدأ هذا الحب بين الأمير وشيخه الصوفي قبل لقائها هذا، فأولى خيوط هذه المودة الآصرة بين الإثنين "كانت معرفة سمعية، أي في علم اليقين حسب المصطلح الصوفي، ثم ارتقت إلى عين اليقين حين اللقاء الأول، لتصبح محبة ملازمة، وهي حق اليقين، أتاحت للأمير وشيخه أن يفتحا بابا في الشعر يمكن تسميته" شعر الموائد[٣٥٩] " ساعدت عليه أريحية الفروسية وجود الصوفية والقيام بحق التسلية وقطع الفراغ الرهيب الذي كان يعيشه الأمير بمنفاه: [٣٦٠]

لا غرو إن أحببتكم من قبل ما
شاهدتكم أنتم جمال العالم[٣٦١]
كانت على سمعي تغار نواظري
حتى رأيتك أنت، أنت مكلمي
عندي الأيادي البيض حيث أريتني
ماكان قبلا في يقين العالم

والآن صــــرت من الــــيـــقـــين بـــحـــقـــــه

وبـــعـــيـــنـــه إن الـــســـرور مـــنـــادمـــي

ويسارع الشاعر للانتصاف لنفسه من نفسه في محبة هذا الأنيس والجليس الصالح وكيف لا يحبه وهو يرى صورته مجسدة في هذا الشيخ من علم وزهد وتقوى، فضلا عن أن ممدوحه قريب الشبه من منزله قطب العارفين " محيي الدين بن عربي شيخ الأمير نال العلا وتبوأ منه المكان الأسمى فهو الأوحد في الفضل والكرم والجود لا يدانيه في ذلك أحد ثم يدعو شاعرنا لشيخه الدعاء المنبئ عن رجاء عبدالقادر فيه: (٣٦٢)

أسَـــميّ قـــطب الـــعـــارفـــين لك الـــعـــلا

مـــتـــبـــوّئـــاً مـــنـــه أجلّ مـــعـــالـــمِ

أنت الـــذي في الـــفـــضل أصـــبح مـــفـــردا

لـــــعـــلاه، مـــــا مـــن مـــــدَّعٍ ومـــــزاحـــم

لازلتَ مـــيـــمـــون الـــنـــقـــيـــبـــة طـــالـــعـــــا

بـــالـــســـعـــد ذا فـــضل وخـــدْنِ مـــكـــارم

وسنرى الأمير في قصيدته الموالية يقول" أجمل وأطول مدائحه وربما قصائده كلها"(٣٦٣) وهو يمدح شيخه محمد بن سليمان الفارسي وهو بجوار البيت الحرام بمكة المكرمة.

يستهل الأمير رائيته بتصوير حالته النفسية بدقة بما فيها من صراع وقلق واضطراب وخوف، فهو لم يعرف للاطمئنان والراحة سببا، ولم ير من حلاوة الدنيا إلا الجفو الهجران والصدود، فأيامه شقاء وحزن، ولياليه حالكة سوداء، فهل لهذا الليل من إدبار وهل للنور والضياء من إسفار، هجره النوم والسبات فلم يطب له مضجعا، اعتاد الأسى والسهاد وانقطعت به سبل الصبر ينتظر الفرج القريب والأمل المفقود اللذان لاحا له بلقاء هذا الصوفي الزاهد: (٣٦٤)

أمسعود(٣٦٥) جاء الـسعـد والخيـر والـيـسر

وولّتْ جـيـوش الـنـحس لـيس لـهـا ذِكْـرُ

لـيـالـي صـدود وانـقـطـاع وجـفـــــوة

وهـــجـران ســادات فلا ذكـــر الـــهـجــــر

فــأيــامــهــا أضـحـت قـتـامـاً ودجـنــــة

لــيــالـي لا نجم يـــضـيء ولا بـــــــــدر

فـراشيَ فـيـهـا حـشـوه الـهـمّ والـضـنى

فلا الـتـذّ لي جـنبٌ ولا الـتـذّ لي ظـهــــر

لـــيـــالي أنـــادي والـــفــؤاد مـــتـــيَّم

ونـار الجـوى تـشـوي لما قـد حـوى الـصـدر

وبعد أن يستطرد شاعرنا في وصف نفسيته البائسة وحالته الضنك، قبل الفوز بلقاء هذا الشيخ، يصل إلى الغرض الأساسي وهومدح محمد الفاسي وتعداد خصاله وشمائله الإنسانية، فهو عالم العلماء، وشيخ الأنام كلهم بلا منازع، له الصدارة والسبق في العلم والعمل الصالح والجهاد، فاستحق أن يتميز بمنزلة لا ينازعه فيها أحد من عامة الناس، ولا من خاصتهم فاتخذه الأمير المثل والملاذ الأمين يحتمي به من صروف الدهر، وتقلبات الزمن الذي لا يؤمن جانبه، فالأمان والراحة والاطمئنان في ظل هذا الشيخ لا يكدر صفوه أي طارئ، بل إن عبدالقادر كان يعتبر نفسه في عداد الموتى فأحيا الشيخ العظام وهي رميم وبعثت الحياة في الأمير بعثا جديدا فكتب له عمر آخر، وأي عمر؟ إنها حياة جديدة في كنف هذا الصالح الذي اصطفاه المولى وأورثه مجدا لايزول، فهو سليل هذه الشجرة النبوية المباركة الطاهرة، فلا عجب أن يكون هذا الشيخ شمسا وغيره الكواكب، ومن يسوي الشمس بالأنجم الزهر؟ : [٣٦٦]

وأعـــني بـه شـــيخ الأنـــام وشـــيخ من

لـه عـمـة[٣٦٧] في عـذبـة[٣٦٨] ولــه الــصـــدر

عـــيـــاذي ملاذي عـــمـــدتي ثـم عـــدتي

وكـهـفي إذا أبـدى نـــواجـذه الـدهـــر

غـيـاثيَ من أيـدي الـعـداة ومـنـقـذي
مـنـيري مـجـيري عـنـدمـا غـمَّـني الـغـمـر
ومـحـيـي رفـاتـي بـعـد أن كـنـت رمَّـة
وأكـسـبـنـي عـمـراً لـعَـمْـري هـو الـعـمـر
مـحـمـدُ الـفـاسي له من مـحـمـد
صـفـيّ الإله الحـال والـشـيم الـغـر
بـفـرض وتـعـصـيب غـدا إرثه لـه
هـو الـبـدر بـين الأولـيـا وهُمُ الـزهـر

فهذه المناقب التي اختص الله بها هذا الصوفي ، تغنيك عن الاستشهاد بغيرها فقد بلغت الكمال والتمام هي أشبه بروضة تساقطت عليها قطرات ماء فتفتحت أزهارها وتضوع عبيرها عن رائحة المسك والكافور والعطر : [٣٦٩]

شـمـائـلـه تـغـنـيك إن رمت شـاهـدا
هي الـروض لـكنْ، شقَّ أكـمـامه الـقَـطـر
تـضـوّع طـيـبـاً كل زهـرٍ بـنـشـره
فمـا المسك؟مـاالكـافـور؟ مـا الـند؟ مـاالـعطر؟

ويمضى عبدالقادر في تعداد فضائل أستاذه من كرم وحلم ، وزهد وصبر وذكر فكان من أعلام المناقب ومن يضرب بهم المثل في بلوغ قمة المجد والعطاء فيها كحاتم في كرمه والأحنف في حلمه وابن أدهم في زهده ، فإن شيخ الأمير قد فاقهم في ذلك فكأني به يريد أن يضع ممدوحه في درجة الكمال نهاية كل شيء :

ومـا حـاتم ؟ قل لي ومـا حـلم أحـنف
ومـازهـد إبـراهـيم أدهم؟ مـا الـصـبـر

ومن كانت هذه أخلاقه فلا بد أن يكون رحيما صفوحا عند المقدرة يقابل الإساءة

بالإحسان، يغض الطرف عن ظالمه لا خوفا وجبنا، لكن تعففا وترفعا، مما جعله مهابا، حتى الأسود الكاسرة والنمور الشرسة لو رأت هذا الشيخ لسرت الرهبة والهيبة في أوصالها: [٣٧٠]

صفوح يغض الطرف عن كل زلة

لهيبته ذل الغضنفر[٣٧١] والنمر

ولا يزال شاعرنا في مدحه لشيخه يعدد هذه المناقب المحببة للنفس، فبجانب كونه عفوا شجاعا رحيما، فهو كريم بشوش الوجه، طلق المحيا، بادي البسمة تفتر شفتاه عن أسنان بيضاء ناصعة تشبه حبات المزن تسر الناظرين وتبعث في نفوسهم الراحة والاطمئنان والتفاؤل، لا يعرف الغضب والتهور، رحب الصدر حليم ذوأخلاق نبيلة ملازمة، وتلك غاية المقصد ومنتهى الأمل: [٣٧٢]

هشوش بشوش يلقى بالرحب قاصداً

وعن مثل حب المزن تلقاه يفترُّ

فلا غضبٌ حاشا بأن يستفزه

ولا حدّة كلا ولا عنده ضر

ومن صفات هذا الشيخ أيضا هذا التواضع لا عن عجز وضعف، بل عن قوة واقتدار، فهو عزيز شريف، ولكن ليس جبارا متكبرا ولا مختالا فخورا، ينظر إلى هذه الدنيا نظرة احتقار وازدراء، يشفق على أولئك الذين يتهالكون للفوز بملذاتها وزخرفها فهي عنده لا تساوي جناح بعوضة بل أتفه من ذلك. "[٣٧٣]

ذليل لأهل الفقر لا عن مهانة

عزيز، ولا تيه لديه ولا كِبْر

وما زهرة الدنيا بشيء له يرى

وليس لها - يوما - بمجلسه نشر

وهدف الصوفي هو العمل على الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلا من أجل غاية محددة هي إقرار الحق والعدل وإنصاف المظلوم وهداية الانسان، ضف إلى ذلك حرصه على مريديه وحدبه عليهم، أورثه الرسول الكريم هذا النسب وهذا الإرث العظيم وخصه بالفضل العميم فله مطلق الحرية في التصرف على هدي السنة الطيبة الشريفة :

حـــريص عـــلى هـــدي الخلائق جـــاهـــد

رحـــيم بـــهم، بـــر، خـــبـــيـــر،له الـــقَـــدْر

كـــســـاه رســـول الـــله ثـــوب خلافـــــة

لـه الحـكم والـــتـصـريف والـــنـهي والأمـــر

وماهذه الفضائل إلا نعمة من الله منَّ بها على هذا الشيخ، والله حر يفعل ما يريد، فحين أنعم على شيخه بهذا الخير فقد اصطفاه وحباه ورفعه مكانا ساميا، ولذلك ترى شاعرنا يقارن بين نوعين من موجبات الفخر، وهو يمدح شيخه حين يفاضل بين الفخر بالعلم العامل، والفخر بالملك الزائل ولو بعد نصر، وتلك خصيصة لا تفارق مذهبه في الحياة منبعها الصدور عن ارادة التطبيق، تطبيق العلم على العمل وعلى السلوك، ومن المفارقات العجيبة أن يقتبس الامير حكمته نصا وروحا تقريبا من القرآن[٣٧٤] ثم يتلوها بحكمة مؤكدة بصيغة قسم جاهلية : [٣٧٥]

فــذلك فــضل الــلـه يــؤتــيه من يــشـــــا

ولـيس عـلى ذي الـفـضل حـصـر، ولاحـجـر

وذا، وأبـــيك الـــفـــخـــر لا فـــخـــر من غـــدا

وقـد مـلك الـدنـيـا، وسـاعـده الـنـصـــــر

ويحاول الأمير أن يحقق فى أستاذه درجة الكمال بهذه الصفات الكريمة التي يقف أمامها الغير عاجزا عن بلوغها بل وحتى وصفها، ذلك أن الإمام عليا كرم الله وجهه- نفسه- لو رأى هذا الشيخ لأحبه لأنه إنسان صادق مجاهد زاهد، ولجعله خليفة له في علمه، لباعه الطويل وتبحره في مختلف العلوم والفقه : [٣٧٦]

وهـــذا كـــمـــال كَلَّ عن وصف كـــنـــهه
فـــمن يـــدَّعي هـــذا، فـــهـــذا هـــو الـــســـر
أبـــو حـــسنٍ لـــو قـــد رآه أحـــبـــه
وقـــال له: أنت الخـــلـــيـفـــة يـــا بـــحـــر

ويصل بنا المطاف إلى موضوع الحكمة ليؤكد الأمير على أن ممدوحه أهلاً لهذه الصفات الحميدة، وقد التزم كما نلاحظ في بداية كل بيت من أبياته حرف الميم كما هو الشأن عند شعراء الحكمة، ولعل المراد من هذا الالتزام إضفاء صبغة فنية تميز غرض الحكمة الذي يفرغ الشاعر من خلاله تجاربه الطويلة وخبرته مع الحياة، كما عرفها عن كثب، حيث نشأت لدى الأمير قناعة تامة بأن مناط الفضل وموضع التمايز هوبقدر مايمن الله به على الإنسان من علم نافع، وإيمان راسخ، وخلق حسن، وهذا ما حاول الأمير أن يحققه فى ممدوحه الشيخ محمد الفاسي : (٣٧٧)

ومـــا كل شـــهـم يـــدَّعي الـــســـبْق صـــادق
إذا سـيق لـــلـــمـيـدان بـــان له الخـــسْـــــر
وعـــنـــد تجـــلِّي الـــنـــقع يـــظـــهـــر من عـــلا
عـــلى ظـــهـــر جـــردبلٍ ومن تحـــته حُـــمْـــر
ومـــاكل من يـــعـــلـــو الجـــواد بـــفـــارس
إذا ثـــار نـــقع الحـــرب والجـــو مـــغـــبـــرّ
ومـــا كل ســـيف ذو الـــفـــقـــار بـــحـــده
ولا كل كـــرار عـــلـــيًّـــا إذا كـــــروا
ومـــا كل طـــيـــر طـــار في الجـــو فـــاتـــكـــاً
ومـــا كل صـــيَّـــاحٍ إذا صـــرصـــر الـــصـــقـــر
ومـــا كل من يُـــسْـــمَى بـــشـــيـخ كـــمـــثـــلـــه
ومـــا كل من يُـــدْعَى بـــعـــمـــروٍ إذن عـــمـــرو

ومراد الشاعرمن هذا كله هو أن يبين أن هذا الشيخ لم يكن مدعيا لهذه الصفات

كذبا ونفاقا، بل إن مانعت به هي الحقيقة كاملة، لأن الشاعر لا يمدح إلا صدقا كما مر بنا من قبل.

٢ - المدح السياسي:

لم يأت المدح السياسي عند الأمير إلى جانب غيره من الفنون الشعرية في القصيدة، وانما للمدح السياسي قصائد مستقلة (قصيدتين ومقطوعتين) فكان المدح عنده وحدة قائمة بذاتها، ولم ينظم الأمير هذه المدائح بغية " التكسب والتزلف والحظوة، وانما نظمها في سبيل الشكر ورد المعروف والجميل[٣٧٨] " كما أنه توجه بمدائحه هذه إلى شخص واحد هو السلطان عبدالحميد الأول دون غيره.

وقف عبدالقادر يمدح بني عثمان بتركية وهم سلاطين الخلافة، ولكن بتعبير أدق لم يكن شعره مدحا لهم "وإنما بتعبير نبوي مأثور يدعو لهم دعاء صالحا ويرجو لهم اليوم رجاءه النصر لنفسه بالأمس[٣٧٩] "

ففي قصيدته" آمن من حمام مكة" يستهل الشاعر أبياته بحمد الله وشكره إجلالا وتعظيما على كل حال وفي كل آن، في الشدة والرخاء والضيق والفرج، فالمؤمن صبور شكور يتقبل الأقدار بنفس راضية مؤمنة، فما بالك إذا أنعم الله عليه وأبدله يسراً بعد عسر، وفرجا بعد ضيق، وحرية بعد أسر، فإن المقام يتطلب الشكر العميم، والحمد العظيم للمولى تبارك وتعالى على نعمائه وخيره، فقد منَّ الله عليه بالحرية وأتاح له فرصة التشرف بلقاء الخليفة العثماني، وما يمثله هذا الأمر من أهمية عند الشاعر، فأكرمه الخليفة ونعَّمه وشمله بعطفه وفضله، فغدا الأمير سعيدا فرِحاً، خاصة وأنه تخلص من أمانة المسؤولية وتكاليف الإمارة وأوزارها التي كان يعتبرها الشاعر حملاً ثقيلاً أزيح عن كاهله: [٣٨٠]

الحمد لله تعظيماً وإجلالا

ما أقبل اليسر بعد العسر إقبالا

وما أتت نفحات المسك ناسخة
من المكاره أنواعاً وأشكالا
وأشكر الله إذ لم ينصرم أجلي
حتى وصلت بأهل الدين إيصالا
وامتد عمري إلى أن نلت من سندي
خليفة الله أفياء وأظلالا
فالله أكرمني وأسعدني
وحط عنيَ أوزاراً وأثقالا

لقد طال الأمر على الشاعر حتى دب في قلبه اليأس وتملكه القنوط، وظن أن أسره سيطول إلى الأبد، وأن نازلته قد استحكمت حلقاتها فمالها من فرج، ولكن الله يجعل لكل شيء سببا، ويجازي الصابرين على صبرهم، فيبدل خوفهم أمنا وحزنهم فرحا، ويجعل لذلك ميقاتاً معلوماً يصبح فيه الأمل حقيقة والحلم واقعاً، وهذا ما حصل مع شاعرنا فعلا، فقد فك أسره وأطلق سراحه، فسكن فؤاده بعد اضطراب، ونال وصال الأحبة والإخوان، فبلغ مارمته نفسه وأصبح حراً طليقاً هانئاً سعيداً كحمام مكة في أمنه، لا يمسه الأذى ولا يقاربه الخطر، فتاه عزاً ودلالاً، فشدا وغنى، وجر الذيل فخراً واختيالاً، فهو كالطير الحبيس أفلت من قفصه لينعم بلذة الحرية والحياة، فتراه يرفرف ويزقزق ويغرد لا يعرف بأي وسيلة يعبر عن شعوره بالتحرر والخلاص من العبودية، فليس لغيره سلطان عليه وهو ضيف الخليفة والمقام مقام مجد وعز ودلال: (٣٨١)

قد طال ما طمحت نفسي وما ظفرت
لكنَّ للوصل أوقاتاً وآجالا
أسكن فؤادي وقرَّ الآن في جسدي
فقد وصلت بحزب الله أحبالا

هــذا المــرام الــذي قــد كــنت تــأمــلــــه
فــطب مــآلاً بــلــقــيــاه وطب حـــــالا
وعش هــنــيــئــاً فــأنت الــيــوم آمن مِــن
حــمــام مــكــة إحــرامــا وإحـــلالا
فــأنت تحت لــواء الــمــجــد مــغــتــبــط
في حــضــرة جــمــعتْ قــطــبــاً وإبـــدالا
وته دلالا، وهـــز الـــعـــطف من طـــرب
وغن وارقص وجـــر الـــذيل، مـــخـــتـــالا
أمِــنتَ من كل مــكــروه ومــظــلــمـــــة
فــبح بمــا شــئت تــفــصــيلاً وإجــمـــالا
هــذا مــقــام الــتــهــاني قــد حــلــلت بـــه
فــارتعْ ولا تــخش بــعــد الــيــوم أنــكــالا

ثم يخلص الأمير بعد هذه المقدمة التي صورت فرحته وما كان يقاسيه إلى مدح السلطان عبدالمجيد، وقد تملَّكه الشعور الديني الجارف الذي لازمه في كل أبيات قصيدته التي توافق نفسيته المؤمنة المتدينة، فيناجيها ويبشرها بقرب أمير المؤمنين الذي بلغ بفضل من الله مرتبة الكمال الديني قولا وعملا فحاز مجدا دائما وعزا تليدا، وقدرا جليلا، فعمت أفضاله وحسناته الأنام، فنال الدرجات العالية، ولمَ لا ؟، أليس عبدالمجيد حصن الخلافة المنيع وكافلها وحاميها، يذود عن حياض الدين ويدافع عن الإسلام فيبذل الغالي والنفيس ويسترخصها في سبيل الله جهادا ودفعا لغائلة العدوان، فما عهد له الناس مثيلا ولا نظيرا في هذا الزمن، فليحفظه الله ويشد أزره وينصره على أعدائه نصرا مبينا، ليعم سلطانه فيذل اعداء الله وأعداء الدين الذين يتربصون بهذه الخلافة المجيدة: [٣٨٢]

أبــشــر بــقــرب أمــيــر الــمــؤمــنــين ومن
قــد أكــمل الــلــه فــيــه الــدين إكــمـــالا

عـبـد المجـيـد حـوى مـجـدا وعـزا علا
وجل قـدْراً كـمـا قـد عم أنـــوالا [٣٨٣]
كـهف الخلافـة كـافـيـهـا وكـافـلـهـــا
ومـا عـهـدنـا له في الـقـرن أمـثـالا
يـارب فـاشـدد عـلـى الأعـداء وطـأتـه
واحم حـمـــاه، وزده مـــنك إجـلالا
وأظـهـرَنْ حـزبه في كـل مـتـجَّـهٍ
وسـدِّدنْ مـنـه أقـوالا وأفـعـالا
وابـسط يـديه عـلـى الـغـبـراء قـاطـبـة
وذلِّـلَـنْ كـل مَـن فـي الأرض إذلالا

وما دامت الفرصة متاحة، وحرية التعبير مكفولة في حضرة أمير المؤمنين، فإنه لم ينس أهله وصحبه ووطنه، فالواجب والوفاء يفرضان عليه عرض حالهم وما يقاسونه تحت نير المستعمر الغاشم، فيلفت نظر الخليفة إلى ما يعانيه أبناء الجزائر، وما يرجونه من آمال في عبدالمجيد ليشد أزرهم ويعينهم بكل ما أوتي من قوة ـ ومن رباط الخيل، ليواصلوا جهادهم ويذبوا عن الدين والوطن، فكلهم أمل ورجاء في نظرة رحمة والتفاتة عون من حامي الخلافة، ليكشف ضرهم ويجلي خوفهم، فما المسلمون إلا إخوة فحق الأخوة دين في عنق كل مسلم: [٣٨٤]

فـالمـسـلـمـون بـأرض الـغـرب شـاخـصـة
أبـصـارهم نـحـوه يـرجـون إقـبـالا
كم سـاهـر يـرتجي نـومـاً بـطـلـعـتـه
وحـائـر يـرتجي لـلـحـزن تـسـهـالا

وينعطف شاعرنا بعد أن بلَّغ الأمانة في مدحه معددا مناقب آل عثمان ومآثرهم مجسدة في صورة عبدالمجيد، فيأتي بكم الخبرية على حالها المعتاد عنده في وصف

هؤلاء الأكارم الأماجد، فكم فرجوا من أزمات عن المسلمين فكشفوا الغم وأزالوا الهم، فهم الرحمة المهداة، والوقاية المرجوة والبلسم الشافي، يبذلون في مسعاهم الكريم الأنفس والأموال يدفعهم في ذلك نسب شريف ومجد سام فهم أنصار دين الله وحماته بعد أن عز الأنصار، يجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، يحافظون على العهد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا: (٣٨٥)

كم أزمة فرَّجوا؟ كم غمة كشفوا؟
كم فككوا عن رقاب الخلق أغلالا
هم رحمة لبني الإيمان، قاطبة
هم الوقاية أسواء وأهوالا
أنصار دين النبي بعد غيبته
في نصره بذلوا نفساً وأموالا

فقد خصهم الله بنعمة كبرى، وشرف أزلي دائم الذكر، لما جعل فتح "القسطنطينية" على أيديهم والتي حاول الصحابة والتابعين فتحها فلم ينجحوا وكأن الله كان يؤجل هذه المنقبة العظيمة لآل عثمان ليظل ذكرهم دوما على الألسن تشريفا وتكريما لهم لما بذلوه في سبيله: (٣٨٦)

قد خصهم ربهم في خير منقبة
ما خص صحباً بها قبلاً ولا آلا
كم حاول الصحب والآل الكرام لها
والله يختص من قد شاء أفضالا

فهذه السلالة الطيبة والشجرة المباركة دأبها الجهاد والكفاح في سبيل الله ونصرة دينه، فهم يقولون ما يفعلون منذ أن تحملوا قيادة المسلمين وأمانة الخلافة، وازداد المجد ثباتا والفضل اتساعا والجهاد انتشارا بمقدم خير خلف لهذا السلف الصالح ونعني به السلطان عبدالمجيد فهو في بني عثمان كالدرة في القلادة لا يكتمل جمالها إلا بها: (٣٨٧)

مـــازال في كل عـــصـــر مـــنـــهـم خـــلـف
يــحـمي الـشـريـعـة قـوّالا وفـعّـــالا
حــتـى أتى دهــرنـــا في خــيــر مــنــتـخب
من آل عـــثـــمـــان أملاكـــاً وأقـــيــــالا

ويعمد الشاعر إلى مقارنة حاله وما كان عليه في السابق من ذل الأسر وهوانه وعذابه، وما آل إليه أمره الآن من عز ومجد ورفعة وجاه، وما كان لينال ذلك لولا فضل هذا السلطان عليه، بل إن الأمير يقسم على ذلك للاعتراف لذي الفضل بفضله، ويبدو في هذه المقارنة أثر علم النحو واعتسافه في الإشارة إلى ستة أبواب فيه، في بيتين اثنين، إلا أنها جاءت رقيقة الحاشية يسيرة التفاؤل خفيفة السمع :[٣٨٨]

قد كـنت مـضـمـر خـفْضٍ ثم أكـسـبـنـــي
رفـــعـــاً وقـــد عــمَّـــني جــوداً وأفــضـــالا
وبـــالإضــافــة بــعــد الــقــطع عــرَّفــنـــي
وحط عـــنـيَ تـــصـــغــــيـــراً وإعـــلالا
هـــــــــذا وحـق عـلاه، كـم أزاح، وكـم
أزال عـــنـي بمـــحض الـــفـــضل أثـــقـــالا

ولئن تبدلت الأحوال على الأمير، فلم يعد يملك من حطام هذه الدنيا إلا اسمه وشرفه ليقابل المعروف باسمه، إلا أنه يسارع إلى الشكر والاعتراف بالفضل لصاحبه فيجد العزاء في هذه الأبيات، يمدح بها صاحب نعمته آناء الليل وأطراف النهار شاكرا حمده، مقرا بفضله وتلك شيم الكرام، فالخير لا يثمر إلا في النفس الكريمة الأصيلة، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟[٣٨٩] :

لا زال تـــخـــدمه نـــفـــسي وأمـــدحـــه
مـــســـتـــغـــرق الـدهـــر أبـكـــاراً وآصـــالا
أهــدي مــديــحـي وحــمــدي مـــا حــيــيت له
أفـــادني أنـــعـــمـــاً - جــلَّـتْ - وإقـــبـــالا

جــزاه عـــني إلـه الــعــرش أفــضل مـــــا

جـزا بـه مـحــسـنــاً - يــومــا - ومـفــضــالا

أما قصيدته الثانية فنظمها الشاعر في مدح السلطان عبدالمجيد والتضرع إلى الله كي ينصر العثمانيين حينما كان القتال قائماً بين روسيا وحلفائها والدولة العثمانية.

يستهل عبدالقادر قصيدته بدعاء ملحاح، وتضرع صادق إلى الله متوسلا إليه بأسمائه الحسنى أن يتقبل دعوته بالنصر والثبات للخليفة، وأن يؤيده على أعدائه المتحالفين عليه، الذين يسعون إلى القضاء على دولة الإسلام منطلقا في ذلك من فكرة دينية واقتناع تام بأن الله قادر على نصرة عباده المؤمنين المخلصين المجاهدين في سبيل الله مصداقا لقوله تعالى " وقال ربكم ادعوني استجب لكم- سورة غافر، آية٦٠"

يـــــارب يـــــارب يـــــارب الأنـــــام ومـن

إلــيه مــفـــزعــنــا ســرًا وإعلانـــــا(٣٩٠)

يـــاذا الجلال وذا الإكـــرام مـــالــكــنــا

يــاحي يــامـولِــيــاً فـضلاً وإحــســانــا

يــارب أيِّــد بــروح الــقــدس مــلــجــأنــا

عــبــد المجــيــد ولا تــبــقــيه حــيــرانــا

فهذا الخليفة المجاهد من سلالة أصلها ثابت وفرعها في السماء قد ورث هذا الملك والعز أبا عن جد، فحافظ على العهد وصان الأمانة، فسار على ملة آبائه غازيا مجاهدا، بعد أن كاد الخلف يبتعد عن السبيل، فبذل الأنفس والأموال ابتغاء مرضاة الله، فحق على المولى أن ينصره، ويؤيده مصداقا لقوله تعالى"إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم- سورة محمد، آية ٧" فهؤلاء العداة لا يحاربون عبدالمجيد لذاته بل إن حربهم حرب عقيدة، يسعون للقضاء على الإسلام والمسلمين، ولن يتأتى للخليفة مجابتهم إلا باتحاد المسلمين وتكاتفهم ولم يجد شاعرنا أمام هذا الموقف إلا الدعاء والتضرع إلى الله أن يوحد المسلمين ويلم شملهم لنصرة دينه تحت راية هذا السلطان

المجاهد: [٣٩١]

ابنُ الخلائف وابن الأكرمين ومَنْ
توارثوا الملك سلطانا فسلطانا
أحيا الجهاد لنا من بعد مادرست
وضاعف المال أنواعاً وألوانا
فانصره نصراً عزيزاً لا نظير له
حتى يزيد العدا: همًّا وأحزانا
واحفظ علاه وأرسل ياكريم له
من الملائك حفَّاظاً وأعوانا
وانصر به الشرع وارفع يارؤوف به
عن دينك الحق لا تعدمه برهانا
واجمع إلهي قلوب المسلمين على
وداده أعْلِهِ، أعظِم له شانا

فهذا الدعاء الملحاح، والتضرع الصادق إلى توحيد الصفوف، أو على الأقل توحيد الكلمة ينبعث من نفس الشاعر صادقا، لأنه يدرك مالوحدة الصف من قوة فقد مر بمثل هذه الأحداث، حيث كان أميراً على الجزائر ورأى بأن أخطر شيء يهدد كيان الأمة هو فرقة كلمتها، وتشتت صفوفها، ولذلك فهو يحذر من تكرار هذه الماساة، ثم نرى عبدالقادر ينزل على أعداء الخليفة بأقصى وأشد دعوات الهلاك والويل والثبور، فيدعو الله أن يهدم قواعدهم، ويزلزل كيانهم، ويفرق شملهم، ليسهل على جيش الخليفة مجابهتهم وردهم خائبين عن ديار الإسلام: [٣٩٢]

واهدمْ وزلزلْ وفرق جمع شائنه
واجعل فؤادهم بالرعب ملآنا
وانصر وأيد وثبّتْ جيش نصرته

وينفذ الأمير من مدح السلطان وآبائه إلى مدح هؤلاء المجاهدين في جيش الخلافة، والثناء عليهم، ثناءه على جنوده من قبل، وينقل من صفات أولئك ما يتمناه لهؤلاء ليستعيض عن أمل مفقود بأمل منشود، حتى لا ينقطع الرجاء، فيثني على هؤلاء الأبطال الذين بذلوا أنفسهم الغالية رخيصة ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ذلك" ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا-سورة التوبة، آية١١١" وتلك لعمري التجارة الرابحة والفوز العظيم، لذلك تراهم يوم تقع الواقعة يضربون أعداءهم ذات اليمين وذات الشمال بسيوف وامضة تلمع في ظلمات المعركة تؤازرها طعنات رماح نافذة لا تحيد عن هدفها، فترى الاعداء حينئذ صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية مضرجين في دمائهم، فيزداد المجاهدون إيمانا وثقة وحماسا تسري حرارة الجهاد في عروقهم فيستدفئون بنارها، غايتهم رضا الرحمن ورضوانه عليهم، لا يريدون من ذلك جزاء ولا شكورا، تراهم فوق ظهور خيل ضامرة وكأنهم عقبان تنقض على فرائسها فتذيقها كأس المنية:

الباذلون بيوم الحرب أنفسهم
لله كم بذلوا نفساً، وأبدانا
والضاربون ببيض الهند مرهفة
تخالها في ظلام الحرب نيرانا
والطاعنون بسمر[٣٩٣] الخط عالية
إذا العدو رآها شرَّعت بانا
والمصطلون بنار الحرب شاعلة
مطلوبهم منك ياذا الفضل رضوانا
والراكبون عتاق الخيل ضامرة
تخالها في مجال الحرب عقبانا[٣٩٤]

وهؤلاء الرجال المجاهدون تراهم دوما سباقين إلى ساح الوغى حين ينادي منادي الجهاد، وتبدي الحرب نواجذها فيطيرون إليها فرسانا وراجلين يتنافسون لنيل الشهادة والفوز بالجنة لاتلهيهم عن ذلك دنيا زائلة يوم النداء الأكبر، صابرون يحتسبون أرواحهم عند بارئها، هم الليوث غضبى بل أشد من ذلك، فمجرد الاقتراب منهم معناه الموت المحقق، دأبهم شق الصفوف وقطع الرؤوس اليانعة التي حان قطافها، فيمسي العدو مبهورا متعجبا من أفعالهم يطلب النجاة غير مصدق لما يرى: [٣٩٥]

جيش إذا صاح صيَّاح الحروب لهم
طاروا إلى الموت فرسانا ورجلانا
هم الجبال ثباتا يوم حربهم
فصابر من دعاهم صبره خانا
هم الليوث، ليوث الغاب غاضبة
والليث لا يُلتَقَى إن كان غضبانا
هم الألى دأبهم شقُّ الصفوف لدى
حملاتهم صار جيش الكفر دهشانا
الدافعون عن الإسلام كل أذى
بأنفس قد غلت قدْراً وأثمانا
كم غمة كشفوا كم كربة رفعوا
وكم أزاحوا عن الإسلام عدوانا

لقد كان عبدالقادر في الجزائر قادرا على استنفار الجند وجمع المتطوعين وإصدار الأوامر، لكن الحال تبدل، فلم يعد يملك في ظرفه هذا إلا الدعاء كعادته، والتضرع إلى الله أن ينصر هذا الجيش المسلم" فأصبح الدعاء لهؤلاء بالانتصار على ثلاث دول منها روسيا القيصرية يقتضي حسن التصرف ومواجهة كل حال بما يقتضيه"[٣٩٦] فاستحضر هنا أسماء ستة وثلاثين صحابيا[٣٩٧] كريما، ما منهم إلا له منزلة ومقام معلوم في صدق الجهاد، وحسن البلاء يصفهم بصفات نخالها محببة وقريبة من نفس السلطان عبدالمجيد،

ليختم أبياته مستحضرا مثالية الرسول صلى الله عليه وسلم متوسلا بها عند ربه عسى الله أن يتقبل دعاءه فيمنُّ بالنصر وما ذلك على الله بعزيز: [٣٩٨]

إني توسلت يارب الأنام بهم
أرجوك فضلاً وغفراناً وإحسانا
ثم الصلاة على المختار سيدنا
ما صارت الشيب يوم الحرب شبانا

ونعرج الآن في ختام حديثنا عن المدح السياسي على المقطوعة الأخيرة التي أنشدها الأمير شاكراً مادحا السلطان عبدالمجيد حين أهداه هذا الأخير الوسام المجيدي من الدرجة الأولى، فتقبله الأمير قبولاً حسناً واعتبره أعظم هدية منحت له، لم تكن تخطر له على البال، لذلك كان السرور عظيما، فقد فاجأه السلطان بهذه النعمة- حسب تعبير الشاعر- فوجب الشكر والعرفان لأن الشاعر يرى ضرورة شكر الغير على معروفهم وإحسانهم، وسيظل يذكر هذه النعم ذكره أيام الصبا التي يسترجعها الإنسان حين يدفعه الشوق والحنين إلى تلك الأيام الخوالي يجد فيها متنفسا وراحة، فكذلك الشأن بالنسبة للأمير وهو يذكر هذا الطوق والجميل الذي قلده إياه السلطان، فقد ملكه بالإحسان، والكريم إذا أكرمته ملكته: [٣٩٩]

ولم أر أعظم من نعمة
مُنِحتُ ولم تك لي في حساب
سأشكرها شكر وقت السرور
وأذكرها ذكر وقت الشباب
أيا سابقا بالذي لم يجل
بفكريَ، ثوبا، ونعم الثواب
كذا فلتكن نِعَمُ الأكرمينَ
تفاجِي بلا منة أو طِلاب

٣ - المدح الأدبي:

من الملاحظ أن الأمير الشاعر قد نظم قصائده في المدح الأدبي في الفترة الأخيرة من حياته ١٨٥٦-١٨٨٣[٤٠٠] - والتي قضاها في مدينة دمشق.

وتعتبر قصائده هذه أقرب إلى المساجلات الادبية، منها إلى فن المدح لأن الشاعر كان يتبادل هذه القصائد الشعرية مع ممدوحيه في المناسبات المختلفة على سبيل التهنئة والتكريم والاحترام بغية زيادة أواصر المحبة والإخوة وإدخال السرور على القلوب. تركزت مناقب ممدوحي الشاعر على جملة من الفضائل الفطرية والمكتسبة كالنسب الشريف والعلم والشجاعة والأخلاق الحميدة والجمع بين السيف والقلم. ففي قصيدته"أنا مخلص للود شاكر" يرد الأمير التحية بأحسن منهاويعتبر الشيخ أمين الجندي قمة في الفصاحة والبلاغة تعبق أبياته الجو عطرا ومودة:[٤٠١]

أحلى المديح مديح خِلٍّ فاخرِ
أقواله تنبي كدرٍّ باهرِ
عما أجَنَّ من الوداد جِنانه
ألفاظه تترى كشَهْد قاطرِ
تكسو الملاحة والطلاوة وجهها
فالود من أرجائها كالعاطرِ
ياصاح خاتمة الأفاضل كلهم
من كل شهم كاتب أو شاعرِ

ومن الطبيعي أن يحمل الشاعر لهذا الصديق الصالح من المودة والحب والإخلاص نظير وفاء هذا الأخير وكرمه، ومن شدة حب الأمير لهذا الخل، فقد ملك عليه قلبه، وأسر فؤاده، له من المودة في قلبه منزلة لم يرمها أحد قبله ولا بعده، ويزيده الشاعر اطمئنانا على هذه المكانة وهذا الحب، فهما له دون سواه، فهو مخلص لهذا الخليل شاكرا فضله وفياً لهذه الصداقة، راجيا لها الدوام والاستمرار:[٤٠٢]

عـنـدي لـكم بـين الـضـلـوع مـودة
مـحـفـوظـة ومـصـونـة لـلـغـابـر
كن كـيف شـئت فـأنت أنت أمـيـنـهـا
مـا بـين بـادي عُـرْبـهـا والحـاضـر
مـا الـدر إلا مـا أتـانـا مـنـكـم
أنـا مـخـلـص لـلـود أول شـاكـر

وفي قصيدته التالية التي بعث بها الشاعر إلى الشيخ ابو النصر الطرابلسي شاكراً ومادحاً، رداً على قصيدة امتدح بها هذا الشيخ الأمير فإننا نرى أن الشاعر يسير على نفس النهج، ويعدد مناقب ممدوحه من علم ودين وفقه وأخلاق، فصاحبه ليس برجل سيف، ولكن صاحب قلم وعلم، فالمقام يفرض سبيلا يتلاءم مع صفات الممدوح، وليس ذلك بالأمر العسير على شاعرنا فقد جمع بين رتبتي السيف والقلم وهو أدرى الناس بإعطاء أو إيفاء كل جانب حقه.

يخبرنا الشاعر بأنه قد تلقى كتابات أشبه بروضة غناء، قد زهت وتلونت بأنواع الورود والرياحين، لا يمل المرء جمالها وبهاءها، تسري كلمات هذا الكتاب في نفس قارئه وتدب نشوتها في عروقه دبيب الخمر في روحه فتراه جذلان نشوان، يتمايل مرحا، وسعت فرحته كل شيء، يطلب المزيد ويأبى الحرمان، ضف إلى ذلك أن هذا الكتاب هو عنوان المودة ورسول المحبة، لأنه يحمل بين كلماته أجمل واصدق معاني الوفاء والأخوة، فعز على الشاعر الابتعاد عنه، فهو معه دوماً وملازماً له: (٤٠٣)

أتـانـي كـتـاب لايمل سـمـاعـه
كـتـاب كـوَشْيِ الـروض تـزهـو بـقـاعهُ
يـزيـد عـلـى الـتـرداد طـيـبـاً ولـذة
يـعـز عـلـيـنـا طـرحـه ووداعـه
يـدب دبـيـب الخـمـر في جـسم سـامع
فـيـطـربـنـا إسـمـاعـه وسـمـاعـه

وإلى جانب كونه كتاب وفاء ومودة، فإن أبا النصر قد أودع فيه ابلغ العبارات

والألفاظ فاق بها غيره من الكتاب منطقا وأسلوبا، بيراع كأن مداده ينفث سحرا، يسلب الألباب ويسحر الأفئدة والقلوب لحسن صياغته وجمال أسلوبه، ينير بشعاعه المضيء الدرب الحالك، بلغ في ذلك مرتبة التمام والكمال: [٤٠٤]

كتاب أبي النصر الذي فاق منطقا

وينفث سحراً بابلياً يراعه

فلا زال في أوج الكمال مخيما

يضيء علينا نوره وشعاعه

ويمضي الأمير بعد هذا العرض متغنيا بصفات ممدوحه، فهو حامي الذمار بالعز والمجد والعلم، أفعاله ممدوحة، وطباعه مشكورة، وفضله عميم، لكأنه كعبة الفضل يحج الناس إليها لينالوا العطاء، ويتزودوا بخير الزاد، العلم والتقوى، سيرته في ذلك، دعوة الله بالحجة والبرهان والحسنى، حتى بلغ العلا والذرى، يطاول عنان السماء عزا ومجدا، مبشرا لا منفرا، وميسرا لا معسرا ذا نفس كريمة لا يعرف البخل والشح سبيلا لها:

ولا زال من يحمي الذمار بعزة

ولو جمعوا مايستطاع دفاعه

ولا زال محجوج الأفاضل كعبة

وممدوحة أفعاله وطباعه

ولا زال سيَّاراً إلى الله داعيا

بعلمٍ، وحلمٍ ما يضم شراعه

ولا زال للعلياء أرفع راية

وبشراه مبذول لنا ومتاعه

ويختتم الأمير أبياته بالدعاء لممدوحه بأفضل ما ورد في الأثر بأن يبقيه الله عين زمانه، يحرس العباد ويرعاهم، بكرم وفضل، ويحمل عنهم بعض الذي يعانون

وتلك رسالة هذا الشيخ في هذه الحياة:[٤٠٥]

فـــأبـــقـــاه من رقَّـــاه عـــين زمـــانـــه

وحـــامل كل الـــكل مـــنـــا وســـاعـــه

ويجمع الأمير في قصيدته التي مدح بها عبدالكريم الحمزاوي[٤٠٦] بين العلم والفكر والشجاعة، والنسب النبوي الشريف، ومناسبتها أن هذا الأمير نشر ديوان شعر، وأهدى نسخة منه للأمير، فتقبلها عبدالقادر شاكرا وقرضه بقصيدة ميمية استهلها بالشكر والثناء على هذا السيد الكريم العالم الذي أطاعته القوافي، وانصاعت إليه جوامع الكلم، فعباراته سلسة لا غموض فيها، ومعانيه واضحة ودقيقة، رقيقة رقة النسيم العليل، تسري في النفس العليلة، فتبعث فيها الشفاء والراحة فتغدو سابحة في عالم أدبي روحي فيه رومانسية وجمال[٤٠٧]:

فـــذا ديـــوان ســـيـــدنـــا الـــكـــريم

ســـلـــيل المـــصـــطـــفى عـــبـــدالـــكـــريمِ

مـــن الـــلائي[٤٠٨] تـــطـــيـــعـــهم الـــقـــوافي

وتـــنـــقـــاد انـــقـــيـــادا، كـــالـــغـــريـــم

وتـــألـــفـــهم مـــعـــان شـــاردات

دقـــيـــقـــات، أرق مـــن الـــنـــســـيم

لـــهـــا في قـــلب ســـامـــعـــهـــا دبـــيـــب

دبـــيـــب الـــبـــرء في ذات الـــســـقـــيـــم

وتـــطـــرب من يـــفـــر من المـــثـــاني

وتـــرقص من يـــكـــدر بـــالـــنـــديـــم

وممدوح الأمير جمع طرفي المجد: من سيف وقلم، فهو بطل صنديد يريك برهانه في ساح المعركة، يذيق أعداءه المنون، فتراهم هشيما تذروه الرياح يطلبون النجاة، وهو أديب إذا هز اليراع ينصاع البيان، فيأتي بالحجة والبرهان والبينة البليغة فإذا كان غيره فرسان الوغى فهو فارس الحرب وفارس الكلمة يمتطي البيان ليحقق النصر

بالإقناع والإمتاع فجمع بذلك طرفي الفخر والمجد والسؤدد وتلك لعمري الغاية التي ينشدها كرام النفوس من أمثال هذا السيد الذي أمسى كصاحب سيف الدولة شاعرنا العربي حين يصف نفسه[٤٠٩]:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والضرب والطعن والقرطاس والقلم

ويعرج إلى ذكر نسب ممدوحه الشريف فهو الكريم ابن الكريم ينحدر من سلالة طاهرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، لا يدانيه أي أحد في هذا الشرف السامي، ومن هنا كانت هذه العلاقة بين الشاعر وممدوحه في هذا الفخر التليد، فلا يعلو أحدهما على الثاني ولا يغني عنه شيئا[٤١٠]

كريم من كريم من كريم

كريم، من كريم، من كريم

إلى أبناء هاشم قد نمته*

ذوو الأحساب والشرف العميم

فذخري حبهم عند احتياجي

ولا يغني حميم عن حميم

ونختم جولتنا مع الشاعر بهذه القصيدة التي أنشدها مادحا مفتي دمشق معجبًا بفضائله ومناقبه من علم وخلق وأدب، فممدوحه سباق للمكارم حائز لأعلى المراتب والمحامد، له يراع إذا اهتز ترى السيوف خاشعة ذليلة الطرف، تؤمر فتطيع وتدعَى فتجيب، فهي في خدمة القلم والفكر، وفي ذلك تفضيل من الأمير للعلم على الشجاعة وللقلم على السيف: [٤١١]

خليلي أتانيَ منك الكتاب

فلله درك ما أجمله

أتاني كما أنا ذا طالب

فلا زلت في الـــوقت ذا أفْـــضـــلـه
ولا زلت حـــائـــز قـــصب الـــســبـــاق
إلـى كل فـــــضـــل عـلا نــــائـــلـــه
تــهــز الــيـــراع فــتــخــشى الــســيــوف
وتـــصـــبح مـــهـــزومـــةً جـــافــلــه
ومـــازالت الـــســـمـــر والمـــرهـــفــات
لأقلامـــكـــم خـــدمـــا مـــاثـــلـــه

وإن كـان فـضـل المرء وقيمته في لسانه، فلممدوح الشاعر الألسن في كل العلوم والمعارف، وليس ذلك بغريب، فحسبه أن يذكر اسمه لترى المعاني السامية قد اشتملت عليه، فقد بلغ من الفضل مبتغاه، وارتقى أسباب العز والمجد سموا لم يجد الأمير صاحبه ومادحه- الذي عهدناه لا يتملق ولا يثني على الرجل إلا بما فيه - أمام هذا إلا أن يقول ملء فيه" ماأكمله" على حد قول الشاعر:

إذاكـــان فـــضل الـــغـــنى بـــالـــلـــســـان
فـــأنـــتم لـــكم ألـــسن فـــاضـــلـــه
لـــئن كـــان ؟، لـــفظ اســـمـــكم مـــفـــرداً
فـــمـــعـــنـــاكم الجـــمع مـــاأشـــمـــلـــه
ولـــو كـــان بـــالـــفـــضل يـــرقى الـــســـمـــاك
رقـــيـــتم، وأثـــقـــلـــتم كـــاهـــلـــه
جـــمـــعت أدابـــاً وفـــضل انـــتـــســـابٍ
فـــنـــاعـــتـــكم قـــال: مـــا أكـــمـــلـــه

هـ - الشعر الديني: الصوفي - المدائح - الحجازيات:

١ - التصوف والشعر الصوفي:

يعتبر الامير التصوف" جهاد النفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال

النفس تحت الاوامر الإلهية، والاطمئنان والاذعان لأحكام الربوبية لا شيء آخر من غير سبيل الله[٤١٢] للوصول إلى غاية سامية وهدف جليل باعتبار "أن الصوفية هم سادات طوائف المسلمين"[٤١٣]

فمفهوم التصوف إذن عند عبدالقادر " هو جهاد النفس في سبيل معرفة الله عن طريق الرياضات الشاقة والعبادات الخالصة لله والحضور الدائم له[٤١٤].

ومادمنا نتحدث عن الأمير وعلاقته بالتصوف، فإن المقام يفرض علينا أن نعود قليلا للوراء لنكتشف الاسباب والدوافع التي حملت عبدالقادر على سلوك هذا الطريق الصعب الجليل في محاولة لاستعراضها، ذلك أن التصوف قد ارتبط بحياة الأمير ارتباطا شديدا حتى يخال المرء وهو يتصفح حياته أنه خلق ليكون صوفيا، وما الإمارة والسلطان إلا محطات عارضة في حياته.

فالأمير تشرب الدين من صباه، حيث نشأ في أسرة محافظة شديدة التدين يشهد لأفرادها بالتقوى والصلاح والعلم والزهد، فأبوه كان" مرابطا" وشيخ الطريقة القادرية في الجزائر، والذي سعى جهده في تنشئة ابنه نشأة دينية علمية صوفية، وتأهيله دينيا ليستخلفه في منصبه، بل إن طموح عبدالقادر الأكبر في شبابه هو أن يصبح "مرابطا" مثل والده[٤١٥]، ولم يخطر بباله قط أن يتحمل ثقل أمانة الإمارة وقيادة الشعب، فالظروف والأحداث هما اللتان أجبرتاه على ذلك" وإن دوره الحقيقي لم يكن إقامة دولة، بل العبادة والتجرد والبعد عن هذا العالم"، ولنستمع إليه وهو يقرر هذه الحقيقة الثابتة في احدى رسائله لأحد الأساقفة الفرنسيين بقوله: " لعلك قد اكتشفت من خلال حديثنا أنني لم أولد لأكون محاربا ولو يوما واحدا، ويبدو لي أنه كان يجب علي أن لا أكون محاربا ولو يوما واحدا، ومع ذلك فقد حملت السلاح طيلة حياتي، ما أكثر غموض مغيبات القدر، ولم يكن سوى محض الصدفة أن وجدت نفسي بعيدا عن الدور الذي حدده لي ميلادي وتربيتي وميولي [٤١٦]

وإلى جانب هذه النشأة الدينية القوية" التي أثرت في تكوينه النفسي منذ نشأة الأولى

وهي بيئة دين وعبادة وتصوف وزهد وتقشف[٤١٧] "، فإن لنسبه النبوي الشريف وانتمائه إلى الدوحة المباركة، الأثر الكبير أيضا في توجيهه الصوفي وسلوكه هذا السبيل، ويتجلى لنا موقفه من أهل البيت في شرحه للآية الكريمة: " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا- سورة الأحزاب، الآية ٣٢" فيقول في الموقف ٢٧٦" "تأمل هذه العناية الكبرى والنقبة العظمى والمنزلة الزلفى لأهل البيت النبوي، ولفظة أهل البيت تعمهم من أولهم إلى آخر مولود منهم، حصر تعالى إرادته لإذهاب الرجس عنهم - والرجس هو الذنب- تطهيرا كاملا مؤكدا بالمصدر، وذلك بأن يكون كل ما يصدر منهم من المعاصي والمخالفات مغفورة لهم، بل المغفرة متقدمة لا بأنهم معصومون من المخالفات، كلا وحاشا، بل معنى أن ذنوبهم تقع مغفرة لهم عناية إلهية"[٤١٨] .

على أن الأمير لم يقنع بهذا النسب المتوارث، بل سعى جهده ليربطه بجلائل الأعمال، ويجاهد في سبيل تحقيق الغايات النبيلة التي ينشدها وهو يسلك طريق التصوف ليصبح من أهل البيت الإلهي مشيرا إلى ذلك بقوله: " إذا كانت عنايته تعالى بأهل البيت النبوي الشريف، كما أخبر فما ظنك بعنايته بأهل البيت الإلهي؟ وهم المعنيون بأهل القلوب"[٤١٩]

فعبدالقادر بطموحه وإيمانه بالقليل من المجد، دوماً تراه يسارع إلى الخيرات والأعمال الصالحة، والالتزام بتعاليم القرآن وجده المصطفى (ص)، ليصبح من أهل البيت الإلهي، ويضيف بذلك مجدا على مجد لأن الخير كل الخير في الجمع بين البيتين النبوى والإلهي، وتلك لعمري منتهى الآمال فمن " كان من أهل البيت النبوي والإلهي فبخ بخ، وكرامة على كرامة، ونورا على نور، ومن كان من أهل البيت النبوي فقط فهو دون من كان من أهل البيت الإلهي"[٤٢٠] .

إضافة إلى هذا فقد لعبت الأحداث دورا رئيسيا في توجه الأمير الوجهة الصوفية فغني عن البيان، أن المرحلة الأولى من حياة عبدالقادر ونقصد بها مرحلة الإمارة

والجهاد التي امتدت من ١٢٤٦ - ١٢٦٤هـ/ ١٨٣٠ - ١٨٤٧م قد شغلته عن هذا السبيل وانحصرت اهتماماته في الأمور السياسية والعسكرية حاملا أعباء أمة وقائدا لكفاح شعب، على أن ذلك لم يستمر طويلا مع عبدالقادر فبانتهاء هذه المرحلة بدأت " مرحلة جديدة هي مرحلة التصوف والعبادة والتجرد من متاع الدنيا الفانية[٤٢١]، فكان أسره "بامبواز " AUMBOISE من أهم المحطات التاريخية في تصوفه، فقد ضاقت عليه الأرجاء وتبدل حاله، عزاؤه الوحيد في سجنه أو خلوته إن صح لنا التعبير- هو الدعاء المتواصل والصبر الجميل، ولنستمع إلى عبدالقادر وهو يصور لنا حاله، ويصف لنا نفسيته التعيسة يقول: " دخلت مرة خلوة، فعندما دخلتها انكسرت نفسي وضاقت علي الارجاء، وفقدت قلبي، وإذا المعرفة نكرة، والأنس وحشة، والمطايبة مشاغبة، والمسامرة مناكرة، فكان نهاري ليلي ويحا وويلا، وأي قربة أردتها ابتعدت بها، فلم يبق معي من أنواع الصلوات إلا الصلاة، فكان هذا ابتلاء"[٤٢٢].

وهكذا أتيح للأمير في هذه الخلوة التأمل والتفكير الروحاني الهادىء العميق فكانت ساعات يومه وليله عبادة، وذكر وتبتل وابتهال للمولى سبحانه وتعالى أن يفرج كربه ويحل أزمته، فكانت رحمة ربه أن منَّ عليه بفضل عظيم حيث" كانت ترد عليه الواردات في الوقائع مشيرة وآمرة بالصبر[٤٢٣] ولذلك اعتبرت هذه المرحلة بمثابة حلقة الوصل بين مراحل التصوف عنده. ومما زاد في أهميتها هو ذلك اللقاء بين الأمير وبين الصوفي الكبير الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني، الذي يبدو أن الأمير عبدالقادرتتلمذ عليه" وتلقى عليه مبادئ الطريقة الشاذلية وأصولها وناقشه في الموضوعات الصوفية"[٤٢٤].

على أن أهم مرحلة من مراحل التصوف عنده، هي تلك التي تلت إطلاق سراحه وفك أسره، ففيها "تغلغل الأمير في العلوم وأظهر من دقائق الحقائق وعوارف المعارف ما يؤذن بسمو مقامه وعلو قدره[٤٢٥] " ولذلك يرجح " أن يكون أديبا أول اتجاهات الأمير، أما التصوف نفسه فآخر ما اتجه اليه. . . فالتصوف أساس تراثه الموروث

والأدب والعلم، كلاهما يرتبط عضويا بعلم التصوف وموضوعاته ووسائله وأهدافه ومؤلفاته لا سيما التي اختارها الأمير. "[٤٢٦]

وكانت هذه الفترة الأخيرة أطول مراحل التصوف عند الأمير من الناحية الزمنية، اذ تمتد ما يقرب الثلاثين سنة قضاها الأمير عبادة وذكرا، وقد ذكر جواد المرابط أن الأمير " كان يدخل الخلوة أربعين يوما في أشرفية «صحنايا» على قطرات من الماء وعلى لوزة وتمرة كل يوم، أحيانا يكون قوته في خلوته كسرة خبر صغيرة مع قليل من زيت وتمر كل يوم، [٤٢٧] " وكان عبدالقادر يفعل هذا في حين يأكل عشرات الضيوف وعشرات الخدم من مطبخه وعلى مائدته .

وفي هذه المرحلة تم له الفتح العظيم إبان خلوته الصوفية الشهيرة حين مكث في البقاع المقدسة مجاورا الحبيب المصطفى لسنة ونصف سنة ١٢٧٩ - ١٢٨٠ / ١٨٦٣ - ١٨٦٤، حاجاً ومقبلاً فيها على العبادة وجهاد النفس والخلوة، حيث التقى فيها بالشيخ العارف بالله محمد الفاسي شيخ الطريقة الشاذلية وتتلمذ عليه، وشرب عنه الطريقة، إلى أن ارتقى في معارج الأسرار الإلهية " وتم له الارتقاء في غار حراء لأنه انقطع فيه أياما عديدة إلى أن جاءته البشرى ووقع له الفتح النوراني، وانفتح له باب الواردات واستظهر من القرآن الكريم آيات، ومن الحديث النبوي أحاديث صحيحة"[٤٢٨] وقد أشار الأمير إلى هذا فى رائيته الشهيرة التي يمدح فيها شيخه الفاسي ومطلعها: [٤٢٩]

أمسعود جاء السعد والخير واليسر

وولَّت جيوش النحس ليس لها ذِكْرُ

وعلى هذا النمط قسَّم دارسو حياة الأمير تصوفه إلى هذه المراحل الثلاث التالية:

المرحلة الأولى: التي سافر فيها مع والده إلى بغداد بعد أداء فريضة الحج ١٢٤١ وفيها زار ضريح القطب الرباني السيد عبدالقادر الجيلاني قدس الله سره،/ وأخذا الإجازة بالطريقة القادرية عن الشيخ محمود القادري نقيب الاشراف.

المرحلة الثانية: وهي مرحلة الأسر التي قضاها عبدالقادر في فرنسا أو على الأصح خلوته فى "أمبواز"

المرحلة الثالثة: والتي أقام فيها الأمير بمكة حاجاً لسنة ونصف مجاوراً الأماكن المقدسة، ولقائه الشهير بالشيخ محمد الفاسي مقدم الطريقة الشاذلية.

هذه لمحة مبسطة عن مراحل التصوف عند عبدالقادر والأسباب والدوافع التي ساهمت في سلوك عبدالقادر لهذا السبيل، ننتقل بعدها لنعيش مع شعره الصوفي، وقبل أن نتعرض لتحليل قصائده ودراستها لا بد أن نسجل أن للأمير قصائد كثيرة في التصوف على حد قول محقق الديوان" وإني لأعرف له كثيرا من هذا النوع يتناشده رجال الطرق في أذكارهم على أني وإن كنت قليل الشك في نسبته إليه، فلا ريب عندي في انه أصبح خليطا عجيبا من قوله وقول سواه من الدخلاء على هذا الفن، ومزيجا غريبا من أقوال متفاوتة الدرجات وأكثره محطم الوزن مضطرب المعنى، يشق تخليص بعضه من بعض، وليس من وراء ذلك جدوى فنية ذات قيمة، والذي بين أيدينا فيه الكفاية ليدل على مستواه في الشعر، وعلى الفنون التي تعاطاها، ومنزلته بين شعراء عصره، وأسلوبه وقدرته"[٤٣٠].

وللأمانة العلمية نسجل ملاحظة الدكتور عبدالله الركيبي وهو يتحدث عن شعر التصوف عند الأمير عبدالقادر حيث ذكر" أن هناك من القصائد وخاصة التي قالها الأمير في التصوف تختلف في شكلها والفاظها أو عباراتها من مصدر إلى آخر فهي في ديوانه تختلف عنها في كتابة المواقف، ومن هنا فإنها في الديوان تبدو سليمة إلى حد ما في أوزانها وتفعيلاتها، بينما تبدو في المواقف مكسورة نظرا للتقديم والتأخير في عباراتها مما يدعو إلى التساؤل: هل ان القصائد التي في المواقف هي الأصل ثم نشرت في الديوان بترتيب وبصيغة جديدة؟ ومن قام بهذا العمل."[٤٣١]

ومهما قيل عن شعر التصوف عند الأمير فإنه لا يحط من قيمته وجهده في هذا

المضمار، ويكفيه فخراً أنه" أول شاعر جزائري حديث كتب في التصوف نثراً وشعرا، وترك تراثاً ضخما بالقياس إلى غيره من العلماء والشعراء في عصره، وربما إلى من جاء بعده على تفاوت بينهم قلة وكثرة [٤٣٢] " وإذا عد الأمير في بداية حياته شاعر العروبة والإسلام "فإنه في آخرها يمكن اعتباره شاعر التصوف بلا منازع [٤٣٣] "

والقصائد التي بين أيدينا تجول كلها في دائرة شعراء التصوف الأقدمين مثل الحديث عن المتصوفة ووصف حالاتهم وانجذابهم أو مشاهدتهم ونشوتهم في حالة السكر والصحو، أوحالة الشك التي تعتري المتصوف وهو يلتمس طريقه إلى جانب الله، كما نجد التقليد واضحا في الموضوعات والأفكار، بل إن الأمير يبدو في شعره الصوفي متأثرا إلى أبعد حدود التأثر " بآراء محيى الدين بن عربى في فتوحاته المكية ومقلدا لإبن الفاض في كثير من صيغته وتعابيره"[٤٣٤]

ففي قصيدته "أستاذي الصوفي[٤٣٥] التي أنشدها الشاعر في مدح شيخه الناسك الصوفي محمد الفاسي والتي" تعتبر من عيون قصائده الموثقة رواية ونسبة[٤٣٦] " حتى أن د. محمد السيد الوزير يراها أجمل وأطول مدائحه وربما قصائده كلها[٤٣٧] . "

وقد سبق أن تعرضنا لهذه القصيدة في غرض المدح لذلك فلا يعنينا منها في هذا المقام إلا الأبيات التي يتحدث فيها الشاعر عن الجانب الصوفي وتشوقه إلى المتصوفة بعاطفة قوية جياشة تظهر ميله لأهل الطريقة التي يمثلها هذا الشيخ.

ومن عادة رجال الصوفية أن يرمزوا بالحبيب إلى الذات الإلهية في غالب الأحيان، أو إلى الرسول(ص) تارة أخرى، إلا أن الأمير في قصيدته هذه يرمز بالحبيب إلى الشيخ محمد الفاسي، اعتقاداً بل يقيناً من الأمير بأن هذا الشيخ لا يعدو أن يكون ولياً صالحاً وعالماً صوفياً من أولئك الذين سلكوا سبيل البشير المصطفى، والذين وصفهم ربهم بقوله: " ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون – سورة يونس. آية ٦٢"

فبعد مقدمة القصيدة التي صور فيها حالته البائسة الكنود، بلياليه الطوال، وأيامه الداجنة الحبلى بالهجران والفراق والعذاب، لحرمانه من رؤية هذا الشيخ المبارك، لا يلبث أن يقدم الحل فتنفرج أزمته التي خال أن حلقاتها قد استحكمت فيأتيه الفرج من حيث لا يحتسب، فلم يمكث إلا قليلا حتى أتاه البشير يحمل إليه الخبر السعيد، متمثلا في دعوة شيخه له بالحضور إلى مكة المكرمة، فأية بشرى هذه، وأية فرحة تملكت الأمير وهو يتلقى هذا النبأ السعيد، فحالما وصلته، طار به جناح الشوق الذي لا يخشى له كسر، يقطع الفيافي والبراري والسهول فكل شيء يهون، ولا بد أن تتم الرحلة مهما اشتدت الصعاب وتراكمت العقبات، إنه الأمل الذي عاش الأمير يعد له الأيام والليالي فليحققه وليكن ما يكن، صحيح إن الدرب شاق والسفر طويل ومضني لكن الغاية والهدف أسمى وأجل أن تقف أمامها النوائب والمعوقات، فكل شيء يرخص في سبيل اللقاء والوصال، إلى أن وصل الشاعر إلى بطاح مكة المكرمة التي شرفها المولى وأعزها ورفع مقامها وقدرها ببيته العتيق، وكعبتها المشرفة، فتسامت بذلك مجداً وعلواً فلا يدانيها فخر ولا مجد، وأمام هذا المشهد الرهيب المهيب، يقف عبدالقادر متدبراً في آيات الله وحكمته، في أنه جعل بيته المعظم حرماً آمناً يحرم فيه الصيد مع أنه مباح ومشروع في بقية أنحاء البسيطة، مستشعراً عظمة المولى تبارك وتعإلى مبدياً فرحه وحبوره، وهو يكرر لفظ «بطاح» وكأننا به يريد أن يصور أو ينقل لنا ذاك الجو الروحي الذي يمتلك النفس وهي تؤم هذه البقاع المشرفة فتزهد في حطام الدنيا وزخرفها لتلج بالروح والجسد في هذا العالم الروحاني المتشبع بالنفحات الإلهية، فلا قلق ولا خوف ولا اضطراب رحمة من رب الأنام" ولمَ لا والإنسان حين يؤم هذه البقاع المشرفة، تدقق ما بينه وبين خالقه الحجب فيغفر له ذنوبه، مصداقاً لقول رسول اله صلى الله عليه وسلم(من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)، وهذا ما عبر الشاعر عنه بقوله: من حلها حاشا أن يبقى له وزر:[٤٣٨]

إلى أن دعتني همة الشيخ من مدى

بـعـيـد: ألا فـادن فـعـنـدي لك الـذخـــرُ
فـشـمَّـرت عن ذيـلي الإطـار، وطـار بي
جـنـاح اشـتـيـاق لـيس يـخشى له كـسـر
ومـا بـعـدت عن ذا المحب تـهـامـــة
ولم يـثـنـه سـهل هـنـاك ولا وعـــر
إلى أن أنـخـنـا بـالـبـطـاح ركـابـنـــا
وحـطت بـهـا رحـلي، وتم لـهـا الـبـشـر
بـطـاح بـهـا الـبـيت المعـظم، قـبـلـــة
فلا فـخـر إلا فـوقه، ذلك الـفـخـــر
بـطـاح بـهـا الـصـيـد الحلال مـحـــرم
ومن حـلـهـا حـاشـاه يـبـقى لـه وزر

ومن عادة الصوفي أن يذيب شخصيته في شخصية المرشد حتى أنه ليؤثر عن ذي النون المصري أنه قال: " طاعة المريد لشيخه فوق طاعته لربه[٤٣٩] " إلا أن اعتزاز الأمير بنفسه دفعاه إلى أن يساوي نفسه بنفس شيخه ولم لا؟ أليس الأمير سليل الشرف النبوي، والعالم المجاهد التقي الورع فحق له أن يفخر بذلك فهو لم ينس فروسيته ونسبه وخلاله الحميدة.

وقد ورد أن المريد الذي لم يجد الشيخ الذي يتأدب به، ويأخذ عنه الطريقة عليه أن يهاجر إليه ويقيم عنده لا يبرحه حتى يؤذن له، ولكن الأمر هنا اختلف تماما لدى شاعرنا، فالشيخ هو الذي قدم لزيارة عبدالقادر نفسه، واعتبر ذلك شرفا له، كما اعتبر الأمير ابناً له بالتبني الصوفي- إن جاز لنا التعبير- بذلك منذ أن خلق الله هذا الكون، فما السر يا ترى وراء هذا؟ يجيبنا الأمير سريعا بأن هذه المنزلة وهذا الاحترام مرده إلى نسبه الكريم الطاهر الذي منَّ به الله عليه فنعم النسب وياحبذا الذخر: [٤٤٠]

أتـانـي مـربي الـعـارفـين بـنـفـسـه

ولا عـجبٌ فـالـشـأن أضـحى له أمـــر
وقـال فـإني مـنـذ اعـداد حـجـــة[٤٤١]
لمنـتـظـر لـقـيـاك يـاأيـهـا الـبـــدر
فـأنت بـني مـذ" ألـست بـربـكـم؟[٤٤٢]
وذا الـوقت حـقـا ضـمه الـلـوح والـسـطـر
وجـدّك قـد أعـطـاك من قـدمٍ لـنـا
ذخـيـرتـكم فـيـنـا ويـاحـبـذا الـذخـر

على أن عبدالقادر سرعان ما يتدارك الأمر ويعود ذلك المريد الذليل التابع لشيخه، يطيعه الطاعة العمياء، فالأمير ليس مبالغا إن صرح بأنه قبل أقدام بساط هذا العارف بالله عند مثوله بين يديه بعد طول انتظار له من شيخه، على أن هذا الخضوع والانحناء والتذلل قد أتى أكله، فها هو شيخه يرمى له بالبشارة فأفضى إليه بالسر، وبذلك قضي أمراً كان مقدراً للأمير، فنال به البركة، وأصبح أهلاً لأن يعد من المتصوفة، فكأن حاله كان كنحاس لا قيمة له ثم جاء هذا الشيخ فحوله إلى ذهب خالص يتهافت الناس لامتلاكه: [٤٤٣]

فـقـبّـلت من أقـدامه وبـسـاطـه
وقـال: لك الـبـشـرى بـذا قـضي الأمـر
وألـقى عـلى صـفري[٤٤٤] بـإكسـير سره[٤٤٥]
فـقـيل له: هـذا هـو الـذهب الـتـبـر

وما هذا التقدير والإجلال لهذا الشيخ إلا لكونه ذا شمائل وأخلاق سامية فهو حريص على هذي الخلائق رحيم بهم بر عطوف، لأنه خبير بأحوالهم ومعاناتهم فقد أعطى مطلق الحرية في الحكم والتصريف اعتقادا من الأمير بأن هذه القوى الهائلة التي منحت لشيخه، مستمدة من الرسول صلى الله عليه وسلم الذي وصفه رب العزة بقوله: "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم

بالمؤمنين رؤوف رحيم-سورة التوبة آية ١٢٨".

محمدٌ الفاسي، له من محمدٍ

صفيّ الإله الحال والشيم الغر[٤٤٦]

حريص على هدْي الخلائق جاهد

رحيم بهم بر خبير له القدر

كساه رسول الله ثوب خلافة

له الحكم والتصريف والنهي والأمر

وينتهي شريط العذاب والقلق حين يطأ الأمير ربوع الحجاز، فتكتحل مقلتاه بمرأى قداستها وطهارتها، إنها البلد التي نشأ بها شيخه، وترعرع بين جنباتها، يحن اليها الناس وتهفو لها أرواح الصوفي العشاق، لأنها "رمز للحبيب الأول والأخير وهو الله"[٤٤٧] فهذه مكة أشرف وأقدس الحواضر، لا يطاولها في مجدها شمس ولا قمر، ولا يبلغ ذروة جلالها طير ولا نسر، فيها البيت العتيق مهبط الوحي الأول، وعلى أديمها نشأ الحبيب المصطفى، وبين وديانها وشعبها، انتشرت دعوة " لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ولذلك فلا عجب أن تهوي اليها أفئدة المؤمنين ليشهدوا منافع لهم ويذكروا الله في أيام معلومات، يطوفون حول البيت العتيق، و ذلك لعمري منتهى الأمل عند كل مسلم على أن للأمير والقوم كعبة أخرى لا طواف إفاضة لها ولا قدوم ولا ركن فيهاولا حجر، تهوي لها قلوب الصوفية، ينهلون من منابيع الحب الإلهي، والعشق الرباني فشتان إذن ما بين الحجيجين، فالأول قد أدى مناسك ربه، فله أجر ما أحرم وطاف وسعى ووقف، أماالثاني فقد نال الملك والسلطان والعز في رحاب القدس الأعلى والنور الأسنى:

فمكة ذي خير البلاد فديتها

فما طاولتها الشمس يوما ولا النسر

بها كعبتان: كعبة طاف حولها

حجيج الملا، بل ذاك عندهم الظفر

وكعبة حجاج الجناب الذي سما
وجل فلا ركن لديه ولا حجر
وشتان مابين الحجيجين عندنا
فهذا له ملك وهذا له أجر

ويتعجب عبدالقادر أشد العجب من أولئك الذين كان مقصدهم البيت ومبتغاهم الكعبة ويميلون عن الجانب، وهي الحضرة المباركة تنبع وتشع أسمى الخلال والفضائل الربانية، ففيها تلقى الجود والكرم والخير العميم بدون حساب، ولا تسل عما أعد فيها من رياض زاهرات بمعارف وعلوم ربانية، لمن كان له الحظ في الارتشاف من ينابيعها، والتزود منها، فياحبذا الفضل، فطوبى لمن كان نصيبه هذا الخير الذي لا عين رأته ولا أذن سمعت به ولا خطر على بال بشر: [٤٤٨]

عجبت لباغي السير للجانب الذي
نقدس مما لا يجدُّ له السير
ويلقي إليه نفسه بفنائه
بصدق تساوى عنده السر والجهر
فيلقى مناخ الجود والفضل واسعاً
ويلقى فراتاً طاب نهلاً فما القطر
ويلقى رياضاً أزهرت بمعارف
فياحبذا المرأى وياحبذا الزهر

ثم يعرض الأمير للحديث عن الخمر التي كثيرا ما تغنى بها الصوفيون وسكروا بها، فهي ليست خمر دنيا وما فيها من إثم وفواحش كما وصفها رب العزة، بل إن الخمر المقصودة هنا "الخمر الإلهي الذي لم تعتصره يد البشر وليس بسكر حقيقة، لا يقصدون الخمر الذي يذهب العقل ويطير الفؤاد ويذهل الإنسان، إنما سكر هؤلاء العشاق من وقدة الحب، وحرقة الجوى، ولذة الوصال والقرب من الله العلي القهار[٤٤٩] " ولذلك نرى

شاعرنا الصوفي يفيض في وصف أثرها الحسى والروحي يقول الأمير : [٤٥٠]

ويــشــرب كــأســا صــرفــة من مــدامــة
فــيــا حــبــذا الــكــأس ويــا حــبــذا خــمــر
فلا غــول فـــيـــهـــا،لا،ولاعــنــهــا نــزفــة
ولـــيس لـــهـــا بـــرد ولـــيس لـــهـــا حـــر
مــعــتــقــة من قــبل كــســرى مــصــونــة
ومــا ضــمــهــا دن ولا نــالــهــا عــصــر

ويشفق الأمير تارة، ويتحسر أخرى على أولئك الذين حرموا شربها، حتى الملوك والعلماء لو هبت عليهم ريحها ورأوا ختم إنائها لزهدوافيما هم فيه لأنها عين الصواب والحق، فهي العلم كل العلم : [٤٥١] .

فــلــو نــظــر الأملاك خــتم إنــائــهـــــــــا
تــخــلــوا عن الأملاك طــوعــا ولا قــهـــــر
ولــو شــمت الأعلام في الــدرس ريــحــهــا
لما طــاش عن صــوب الــصــواب لــهــا فــكــر
فــيــا بــعــدهم عــنــهــا، ويــابــئس مــارضــوا
فــقــد صــدهم قــصــد وســيَّــرهــم وزر

ويشرف في خاطر الأمير ذلك التوارث العرفاني دون انقطاع عن طلب العلم، فهذه الخمر عنده هي العلم ومركزه، وكل ما حولها يدور في فلكها، لذلك فلا يقربها إلا من خبرها وعرف قيمتها وهو-الصوفي- أما غيره فلا يفقهون من أمرها شيئا، قد فاتهم الربح، وحقت عليهم الخسارة في الدنيا حين صرفوا عنها ولم يشربوها : [٤٥٢]

هــي الــعــلــم، كل الــعــلــم والمــركــز الــذي
بــه كل عـــــلـــم حـــــيـــــن لـــــــــــه دور
فلا عــالــم إلا خــبــيــر بــشُــربــهـــــــا

ولا جاهل إلا جهول بها، غر

ولا غبن في الدنيا ولا من رزيئة

سوى رجل عن نيلها حظه نزر

ولا خسر في الدنياولا هو خاسر

سوى واهٍ، والكف، من كأسها صفر

ويبلغ الشاعر درجة كبيرة من التقليد حين يأتى بأبيات أبى نواس في وصفه للخمر العادية، ويضمنها قصيدته . على أن الأمير هنا يلح فيها على فكرة التصريح بالحب الإلهي، فالاختلاف بينهما هنا في التأويل فقط، وليس عبدالقادر بمبتدع في هذا، فقد سبقه إلى ذلك كثير من الشعراء المتصوفة" فالخمريات منبع فوار من منابع الأدب الصوفي، يكفي أن نورد لأمير الخمر أبي نواس قصيدة لا تختلف عن خمريات الصوفية المتأخرين إلا بالتأويل فقط، فقد سار شعراء الصوفية في الخمريات على آثاره وغرفوا من عبقريته وعبقرية أقرانه[٤٥٣] "، يقول الأمير: [٤٥٤]

إذا زمزم الحادي بذكر صفاتها

وصرح ما كنَّى ونادى، نأى الصبر

وقال: اسقني خمراً وقل لي هي الخمر

ولا تسقني سراً، إذا أمكن الجهر

وصرِّحْ بمن تهوى ودعْني من الكِنى

فلا خير في اللذات من دونها ستر

ثم يخلص للحديث عن تأثير هذه الخمر فى شاربيها من المتصوفة فيصور لنا حالاتهم في لوحات معبرة، فقد هامت عقولهم، ودب في نفوسهم الانشراح والانبساط فتراهم سكارى وماهم بسكارى بنشوة هذه الخمر لا يدرون بشيء مما جرى حولهم غمرتهم سعادة طاغية، فأفقدتهم الإحساس بالواقع المادي، أعرضوا عن زينة الدنيا فتسامت أنفسهم، وحلقت أرواحهم في الآفاق، يسبحون في ملكوت القدس الأعلى،

هم ملوك الأرض وسادة الأنام، بهم الرجاء وعليهم الأمل، فقدوا الشعور بعالمهم الأرضي فهم حيارى، لا يعرفون لهم سبيلا، ليس لهم ذكر ولا فكر، فكل ما هناك أرواح شفافة هائمة في عالم غريب لا يدركه إلا من عب واغترف من هذا النبع: (٤٥٥)

ترى سائقيها كيف هامت عقولهم
ونازلهم بَسْطٌ وخامرهم سكر
وتاهوا فلم يدروا من التيه من هم
وشمس الضحى من تحت أقدامهم عفر
وقالوا: فمن يُرجَى من الكون غيرنا
فنحن ملوك الأرض لا البيض ولا الحمر
تميد بهم كأسٌ بها قد تولهوا
فليس لهم عُرْفٌ وليس لهم نكر
حيارى فلا يدرون أين توجهوا
فليس لهم ذكر، وليس لهم فكر

ولهؤلاء الندمان السكارى موسيقاهم الخاصة فهم لا يطربون لغيرها يرون جمال اللحن وحلاوته في أصوات آيات الله فى كونه، فيطربون إذا ومض البرق، ويرقصون إذا قصف الرعد، يهب عليهم طيب النسيم فيز يدفي سكرهم ونشوتهم، حتى لكأنهم مسحورون، وما بهم إلا سحر الطبيعة وجمالها، ولرهافة إحساسهم وشعورهم، فهم يتأثرون لنشيج وحزن أضعف مخلوقات الله فيبكيهم هديل الحمام في الدجى، يسكبون دموع الرحمة والخوف والخشية، فيختلط هذا البكاء بذاك الطرب في النفس الصوفية، فتذوب له أكبادهم، وتقشعر منه جلودهم مهما بلغت القوة ورباطة الجأش. وعلى الرغم من قوة الصوفي وشدة احتماله، إلا أنه يضعف أمام ظباء وغزلان"رامة" حين تتبدى له بقاماتها الهيفاء، وعيونها الجميلة الأخاذة، فتسلب الأفئدة وتأسر الألباب، فلا ترى إلا عشاقاً يهيمون حباً ويذوبون شوقاً للقاء: (٤٥٦)

فيطربهم برق تألق بالحمى
ويرقصهم رعد يسلع لـه أزر

ويسكرهم طيب النسيم إذا سرى
تظن بهم سحرا ولي بهمُ سحر
وتبكيهم ورْق الحمائم في الدجى
إذا ما بكت من ليس يدري لها وكر
بحزن وتلحين تجاوبتا بما
تذوب له الأكباد والجلمد الصخر
وتسبيهم غزلان رامة، إن بدت
وأحداقها بيض وقاماتها سمر

ويعرج بنا عبدالقادر للحديث عن معاناته وماقاساه في سبيل الحصول على هذه الخمر، التي أطنب في وصفها وذكر محاسنها، فقد ضحى بكل غال ونفيس من أجل غايته، فهانت الدنيا في عينيه، هجر الأهل والأحباب والغيد الحسان، وصارع العوادي والعدا، فلم تثنه الطبيعة بجبالها، وبحارها، وصحاريها عن مواصلة المشوار وبلوغ ماتاقت إليه، فلا أحد كائنا من كان ومهما بلغت محبته ودرجته عند عبدالقادر، يقدر على أن يرده عن قصده أليس هذا النوع من الحب والتضحية منتهى الفروسية الحقة: [٤٥٧]

وفي شمّها - حقا - بذلنا نفوسنا
فهان علينا كل شيء له قدْر
وملْنا عن الأوطان والأهل جملة
فلا قاصرات الطرف تثني ولا القصْر
ولا عن أصيحاب الذوائب من غدت
ملاعبهم مني: الترائب والنحر
هجرنا لها الأحباب والصحب كلهم
فما عاقنا زيد ولا راقنا بكر
ولا ردنا عنها العوداي ولا العدا
ولا هالنا قفر ولا راعنا بحر

وفى سبيل تحقيق غايته الأسمى، يستبدل لباس العز والمجد، بلباس الذل والهوان عن طيب نفسه، بل إنه يحبذ هذا الأمر-على الرغم من مرارته - لأن المولى تفضل عليه بهذا فأكرمه، ووفقه فحقق مبتغاه، فوجب الحمد والشكر لصاحبه: [٤٥٨]

وفـــيـــهـــا حلالي الـــذل من بـــعـــد عـــزة
فـــيـــاحـــبـــذا هـــذا ولـــو بـــدءه مـــر
وذلـك مـن فـــــــضـل الإلـه ومـــــــنَّـــــــة
عــلـي، فــمــا لــلــفـضل عــدٌّ ولا حــصــر
وقــد أنــعــم الــوهــاب فــضلاً بــشــربــهــا
فـــلـــلـــه حـــمـــد دائم ولـه الـــشـــكـــر

ومادام قد بلغ ماتاقت نفسه إليه، فهو بنعمة ربه يحدث، لأن ما وصل اليه وناله يعجز الغير عن معرفة وادراك قيمته، حتى ولوكانوا ملوكا، فلا يسعون إليه ولا يبذلون الأنفس في سبيله، لأنهم انساقوا وراء شهواتهم، وزينت لهم الحياة الدنيا فباؤوا بخسران مبين، فكل ما عندهم وما يملكون، يتنازل عنه الصوفي مقابل رشفة من هذه الخمر، يذهب شاربها بالفوز والفلاح والخير، ويعود المحروم منها بالحسرة والندم: [٤٥٩]

فـــقل لمـــلـــوك الارض أنـــتم وشـــأنـــكم
فقـسـمـتـكم ضـيـزى[٤٦٠]، وقـسـمـتـنـا كـثـر
خـذ الـدنـيـا والأخـرى أبـاغـيـهـمـا مـعـا
وهــات لــنــا كــأســا، فــهــذا لــنــا وفــر

ويهنىء الشاعر نفسه والصوفية، في ختام قصيدته بهذا الفوز العظيم، والتجارة الرابحة، فقد غنموا بعد فقر، وأمنوا بعد خوف فهم لا يحزنون، نورهم يسعى بين أيديهم ومن خلفهم، بلغوا أعلى الرتب فهم في هدى من ربهم، أماغيرهم فحدث عنهم ولا حرج، تراهم في ظلمات يعمهون، صم، بكم، عمي، لا يفقهون من أمر

دنياهم إلا مابدا منها، على أعينهم غشاوة، انساقوا وراء شهوات الحياة وبريقها المزيف، فهم كالأنعام أو أضل قليلا، انطبق عليه قول المولى تبارك وتعالى: "ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل وأولئك هم الغافلون – سورة الأعراف، آية١٧٩":

هنيئا لنا يامعشر الصحب، أننا

لنا حصن أمنٍ ليس يطرقه ذعر[٤٦١]

فنحن بضوء الشمس والغير فى دجى

وأعيننهم عمي وآذانهم وقر

ولا غرو في هذا، وقد قال ربنا

تراهم عيونٌ ينظرون ولا بَصْر

وكما نظم الأمير في الخمر الإلهية، فقد تطرق لموضوع الغزل أو الحب الإلهي سالكا سبل الأولين من القوم الذين تناولوا هذا الغزل والحنين والوجد والبقاء والفناء غير أن شعرهم" لم يأخذ من الشعر التقليدي سوى القوالب الموسيقية بينما تميز شعراء الصوفية بالتعبير الرمزي الذي يوحي بالفكرة ولا يصرح بها[٤٦٢] " وهو الأساس الذي يرتكز عليه الأدب الصوفي في كل فنونه "فهم يعبرون عن المعنى بألفاظ تدل في ظاهرها على شيء قريب يدركه القارئ العادي، وتحمل في باطنها معنى آخر بعيد، لا يصل اليه إلا الدارس المتعمق أو الإنسان المتخصص بفهم بواطن النصوص والصوفي الحق[٤٦٣] " ولذلك فكثيرا ما يختلط الأمر على القارئ إلى حد أنه" إذا لم يقف بطريقة ما على غرض الشاعر، فإنه لا يستطيع التمييز بين قصيدتين إحداهما يتغنى صاحبها بالحب الإنساني، والأخرى بالحب الإلهي"[٤٦٤] .

وعلى هذا فالصوفي ليس فقيهاً يكتب الشعر، بل إنه فنان يمتلك زمام الحس الأدبي فيعبر عن أشواقه، وما يختلج في نفسه، في صور من القول، فنية راقية.

والمتصفح للشعر الصوفي الذي يتناول الغزل الإلهى" يشعر أنه أمام عاطفة حب عنيفة، وأمام إنسان أذابه الوجد، وأضناه الحنين، ويتمه الجوى، وحرك فؤاده الشوق إلى الحبيب . . قوام هذا الحب إخلاص من العاشق، وصدق في عاطفته وإيمان بحبه وعزم على البقاء معه وفيه، وذوبان من أجله، وتلذذ بالعذاب الذي يضنيه، والحرقة التي تكويه، والدموع التي ترويه، والسهام التي ترديه، حب يتمرد على كل غزل أو نصح نصيح[٤٦٥] ".

والشعراء الصوفية في هذا الغزل" يرمون إلى معاني متدفقة بدوافع الحب والغرام الإلهي، إذ إن الأوصاف الحسية، لا تساعد ولا تناسب الموصوف ولا حال الواصف فالواصف أسكره الوجد، وغيبه الغرام، وقتله الحب، فيصف الخمر، ويقصد الخمر الإلهي، ويتيم بلبنى وسعدى، ويقصد الذات العلية[٤٦٦] "

ولن نذهب بعيدا فهاهو الشيخ الاكبر محيي الدين بن عربي يعطينا القاعدة العامة لهذا الغموض والرمز حين يقول: " وجعلت في ذلك بلسان الغزل والتشبيب، لتعشق النفس لهذه العبارات، فتتوافر الدواعي على الإصغاء اليها وهو لسان كل أديب ظريف، وقد نبهت على المقصد في ذلك بأبيات وهي[٤٦٧]:

كل مـــا أذكـــره من طـــلـــل
أو ربـــوع أو مـــقـــام كل مـــا
وكـــذا إن قـــلتُ هي، أو قـــلت يـــا
وإلا إن جـــاء فـــيه أو مـــا
وكـــذا إن قـــلت هي أو قـــلت هـــو
أوهـــمـــو أو هن جـــمـــيـــعـــا أو هـــمـــا

إلى أن يقول:

كل مـــا أذكـــره ممـــا جـــرى
ذكـــره او مـــثـــله أن تـــفـــهـــمـــا

فـــاصـــرف الخـــاطـــر عن ظـــاهـــرهـــا

واطـــلـب الـــبـــاطن حـــتى تـــعـــلـــمـــا

وعلى هذا الدرب سار عبدالقادر، فنراه في قصيدته التي بين أيدينا وكأنه يتغزل بمحبوب مشخص أمامه، يبثه أشواقه ويصف له حاله، وما يقايسه من ألم البعاد والهجر، وقبل أن ندخل في دراسة هذا القصيدة لا بد ان نشير إلى ملاحظة هامة وهي أن قصيدة عبدالقادر تعد نسخة لقصيدة السهروردي(٤٦٨) التي يقول في مطلعها(٤٦٩):

أبـــــدا تحـن إلـــــيـــــكـــــم الأرواح

ووصـــالـــكم ريـــحـــانـــهـــا والـــراح

وقـــلـــوب أهل ودادكم تـــشـــتـــاقـــكم

وإلى لـــذيـــذ لـــقـــائـــكم تـــرتـــاح

فحرف الروي هونفسه في كلتا القصيدتين، والمعاني متطابقة" حتى ليظن القارئ أن القصيدتين من نظم شاعر واحد"(٤٧٠).

نعود إلى قصيدة شاعرنا التي يستهلها بالتعبير عن فرحته العارمة، ولهفته الكبرى برؤية حبيبه الغالي، فقد تحقق له الوصال بعد معاناة وعذاب شديدين، فحق له أن يحتفل بهذا اليوم االموعود المنشود، الذي يعتبر عيدا له، ففيه وصل بروحه وسعادته وهنائه، واكتحلت عيناه بطلعة الحبيب ذو الوجه الحسن الصبوح، فدبت في نفسه نشوة السكر وعمت الروح والجسد، فهو فرح جذلان، لا يرى من هذا العالم شيئا إلا وتجسدت صورة حبيبه فيه، فقد ملك هذا الحب قلبه وسيطر على كيانه، فلم يرق للأمير غيره. وقد تعمد الشاعر استعمال إسم الموصول المذكر بدلا المؤنث ليظهر أنه يتغزل غزلا صوفيا على الرغم من أن بعض التعابير التي تشير إلى جمال مطلَق. يقول الأمير: (٤٧١)

أوقـــات وصـــلـــكم عـــيـــد وأفـــراح

يـــامن هم الـــروح لي والـــروح والـــراحُ

دبت حـــمـــيـــاهمُ في كل جـــوهـــرة

عــــقل ونــــفس وأعــــضـــــــاء وأرواح

فـــمـــا نـــظـــرت إلى شيء يـــشـــبّـــهه

فــمــا يــروق لــقــلــبي بــعــد مـــــــلاّح

وعبدالقادر لا يلام في هذا الهوى الذي ملك عليه روحه ومهجته فلن ينثني عنه ولو أدى به الأمر إلى أن يهجر الناس جميعا ، غرق في هواه حتى أخمص قدميه ، جرفته أمواج هذا الحب ، فليس له من عاصم ، ملكه جمال الحبيب فأغنت طلعته عن ضوء الشمس البهيجة ، حتى الجماد لو رأى هذا الحسن لتفجر نطقا وتسبيحا له ، وإن الكواكب السابحة في الفلك لو نظرت جمال حبيب شاعرنا لتوقفت عن الدوران ، لتشهد حسنه وبهاءه ، فلا لوم عليه إذن في هذا العشق والهيام مادام الأمر قد وصل إلى هذا الحد ، ونلاحظ هنا أن الأمير عمد إلى قواميس التصوف وعبارات الصوفية مثل الغرق ، والبحر ، والملاح ، ليصف لنا هذا الحب تقليدا لنهج القدماء بل نراه يستخدم التشخيص لا " عن ضعف في التأليف أو جهل باللغة وقواعدها ، بل لأن الصوفية يرون في الموجودات صفة الله تقوم بها ويعتقدون أنها تتحدث ، وتعقل ، وتفهم وتحسن وتشعر كالإنسان تماما ، لذلك يخاطبونها بصيغة العاقل(٤٧٢) " ، يقول الأمير(٤٧٣) :

غـــرقت في حـــبـــهم دهـــر ألم تـــرنـــي

في بـــحـــرهم ســـفن -حـــقـــا -ومـــــلاح؟

مـــاذا عـــلى من رأى يـــومـــا جـــمـــالـــهـم

أنْ لـــيس تـــبـــدو له شـــمس وإصـــبـــــاح

جـــبـــال مـــكـــة لـــو شـــامت مـــحـــاســـنـــهـــم

حـــنـــوا ومن شـــوقـــهم نـــاحـــوا وقـــد صـــاحـــوا

شـــهب الـــدراري مـــدى الأيـــام ســـابـــحـــة

لـــو أبـــصـــرَتْـــهم لمـــا جـــاءوا ولا راحـــــوا

ويتعجب الأمير أشد العجب من صبر المحبين واحتمالهم وحرصهم على مداراة ما

في أنفسهم من أسرار المحبة الإلهية التي إئتمنوا عليها، فحاول أن يحذو حذوهم ويكتم ما يعتلج في نفسه من ضروب الهوى، ولكن أنى له ذلك فقد خانه الصبر وافتضح أمره، فظهرت علامات العشق عليه فانكشف السر، وماذاك إلا لأن الهوى فضاح: [٤٧٤]

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني
صبر المحبين ماناحوا ولا باحوا
أريد كتم الهوى حيناً فيمنعني
تهتّكي كيف لا؟ والحب فضّاح

وما دام الأمر قد انكشف، فإن عبدالقادر قد عزم على مواصلة مشوار حبه فلن يميل عنه، مصرا على المضي في هذا الدرب حتى ولو تعرض للموت والهلاك وتلك- فيما نعتقد -خصيصه أخرى من خصائص فروسية الأمير التي عاشها وتغزل بها في محبوبته أثناء جهاده الأصغر يستحضرها الآن في حبه الإلهي وغزله الصوفي[٤٧٥]:

لاشيء يثني عناني عن محبتهم
ولا الصوارم في صدري وأرماح

ثم يلتفت شاعرنا إلى ذلك العذول الذي يلومه في حبه الذي سحر به، فيؤكد له صدق قوله فيه بأنه قد سحر في هذا الهوى، لكن الشيء الذي يجهله هذا العذول أو اللائم هو أن هذا السحر أمر فيه خير الشاعر وفلاحه وسعادته وصلاحه، وسيظل دوما محل ذكر ومدح بين العشاق بهذا الأمر، ولم يتحامل الأمير على لائمه، لأنه جاهل ببواطن الأمور، فيشفق عليه ويترفق في تأنيبه، ملتمسا له العذر في هذا العشق والهوى الذي يضن به عبدالقادر على الناس جميعا إلا حبيبه لافتا نظر هذا العاذل أن كثرة اللوم إغراء وتشجيع واستمرار في هذا الحب إلى النهاية: [٤٧٦]

قال العواذل فيك السحر قلت لهم
نعم ولي صحة فيه وإصلاح

لا زال يــربــو مع الأنــات بي أبـــدا
فـــلي به بـــين أهل الحب أمـــداح
يـاعـاذلي كن عـذيـلي في مـحـبـتـهـم
فـإن قـلـبي بمـا يـهـواه، مـشـحـاح
إن الملامَ لإغــراءٌ وتـــقـــويـــة
مـهلا فـإنك مـكـثـار ومـلـحـاح

وترى شاعرنا في هواه عزوفا عن مخالطة الناس، فهو وحيد لا يشاركه الندمان سكره وشرابه، إلا واحدا اصطفاه الأمير واختاره، لأنه يحدثه عن حبيبه ويحمل اليه أخباره، فلم يعد لعبدالقادر أي شغل، إلا تنسم هذه الأخبار، ويعتبر هذا العمل نعم التجارة الرابحة والفوز العظيم، ففيه غنم الشاعر، بينما ترى غيره يصارعون الحياة من أجل متاعها وبهجتها الزائلة، كسب السمو وارتقى إلى جنان الخلد، حيث أمست نفسه راضية مرضية بما تنعم به من خيرات لا مقطوعة ولا ممنوعة.

فـمـا نـديمي بـحـان الأنس غـيـر فـتى
لـه لأخـــبـــارهم نـــشـــر وإيـــضـــاح
لا كـــسْب لي ولا شــغل ولا عـــمـــل
فــفي حـــديـــثـــهم تجْـــرٌ وأربـــاح
مـا جـنـة الخـلـد إلا في مـجـالـسـهـم
فـــيـــهـــا ثـــمـــار وأطـــيـــار وأرواح

وتبلغ درجة إخلاص الشاعر لحبيبه مرتبة عظيمة، فقد أحبه حبا لا يشاركه فيه أحد ولو أصبح تحت الثرى باليا، فذكره كاف لإذكاء جمرات الهوى، فكلما تذكر الشاعر حبيبه أو خطر له على بال هبت الذكريات والأشواق من مكامنها فاشتعلت نار الحب في فؤاده، فهو حب دائم أزلي لا تمحيه الأيام والسنون، ولا تفتر حرارته رغم البعد والفراق: [٤٧٧]

هـوى المحب لـذى المحـبـوب حـيث ثـوى

وكـيـفـمـا راح هـبت مـنه أرواح

ويخلو شاعرنا بحبيبه بعد عذاب ومعاناة، وقد أديرت أباريق الخمر وأقداحها فيعب منها ما شاء ويود لوأن الجلسة تمتد وتطول فلا الليل يدبر، ولا الصبح يسفر، لينعم طويلا بالخلوة في هذه الحضرة الربانية، ذلك أن أشد ما يروع العاشق الولهان، هو دنو واقتراب موعد فراق من يهوى، وعلى الرغم من أن الليل بظلامه وهمومه مصدر شكوى المحبين، إلا أن الصورة انعكست لدى شاعرنا هذه المرة فأصبح ليله نبع فرح وسرور وإشراق وبهاء، يرجو لو أن أيامه كلها ليالي لينعم دوما بوصال الحبيب ولقائه، فيمسي دهره نور وأفراح: (٤٧٨)

أود طـول الـلـيـالي إن خـلـوت بـهـم

وقـد أديـرت أبـاريق وأقـداح

يـروعـني الـصـبح إن لاحت طلا ئـعه

يـالـيـته لم يـكن ضـوء وإصـبـاح

لـيـلي بـدا مـشرقـا من حـسن طـلـعـتـهـم

وكل ذا الـدهـر، أنـوار، وأفـراح

وإذا كان عبدالقادر قد تعذب وعانى ويلات هذا الحب، فعزاؤه أنه قد بلغ المرام بالوصال، فاطمأنت نفسه وسكن فؤاده، وقرت عيناه فاكتحلت برؤية طلعة الحبيب البهية، ولكنه-وهذا حال العشاق دوما- لم يقنع فيطلب المزيد، لأنه يرجو إلهاً وسعت رحمته كل شيء، يجيب دعوة الملهوف، وينعم عليه من خزائن مالها قفل ولا نفاذ: (٤٧٩)

أسـكنْ فـؤادي وطب نـفـسـاً وقـرَّ، لـقـد

بـلـغتَ مـارمتَ قـرَّ الـنـاس أوسـاحـوا

واطـلـب إلـهك مـا تـرجـو فـإن لـه

وعلى نفس المنوال يمضي في حبه الإلهي في قصيدته"أنا الحب والمحبوب والحب جملة[٤٨٠] " حيث يصور فيها ما يعترض سالك هذا السبيل من آلام وأشواق، وما يكابده من عذاب وحرقة وتطلع للحبيب، والرجاء في الوصال باعتباره" عنوان التصوف وهو البذرة الأم التي نمت شجرته، وتهدلت أغصانه، وانبثق زهره، وأينع ثمره، وقد جعل الصوفية من هذا الحب فلسفة تحيط بكل شيء في الكون، وتمتد أجنحتها إلى كل أفق في الحياة، فلسفة تمسح من وجه الكون الكبير قناعه المادي، ليتحول الكون جميعه إلى أرواح حساسة عابدة، مسبحة لأنها بالحب حلقت، وبالحب قامت، وبالحب تسبح وتهدف ثم تمشي إلى الأخلاق الإنسانية فتنفخ فيها من روح الله، وتسلو بها إلى هداه ورضاه[٤٨١] " فلا جرم إذن أن يسعى الصوفي إلى نيل هذه الغاية مهما كلفه الأمر واعترضت سبيله المحن والصعاب لأنه يضع نصب عينيه قوله تعالى: " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم – سورة آل عمران، آية ٣١" وهو أسمى ما يبتغيه العبد من مولاه فاقتضت بذلك طاعة الأوامر واجتناب النواهي.

وما دام حب الله قد ملأ فؤاد شاعرنا، وذاق حلاوته وطعمه، فإنه لا يستطيع أن يسلو هذه المحبة، فقد ملك فؤاده الهوى وأسر قلبه، فكلما رام البعاد اشتعلت نيران الشوق والحنين في أحشائه فازداد هياما، ولن يطفئ نار لوعته ويسكن ذاك الحر أي شيء، حتى ولو جيء بماء البحر فإنه لا يجدي نفعا فالعاشق دوما ظمآن مهما ارتوى يطلب المزيد من الحب واللقاء والوصال، لأنه به يحيا وفيه يموت، فكلما هبت ريح الحبيب واشتم نسائمه، ازدادت نيران القلب تأججا ودعوة إلى لقاء جديد: [٤٨٢]

عن الحب مـالي كـلـمـا رمت سـلـوانـا

أرى حـشـو أحـشـائي من الـشـوق نـيـرانـا

لـواعج[٤٨٣] لـو أن الـبـحـار جـمـيـعـهـا

صـبـبن لـكـان الحـر أضـعـاف مـاكـانـا

تـئج[٤٨٤] إذا مـا نجْـد هب نـسـيـمـهــــا
وتذكوا بـأرواح[٤٨٥] تناوح[٤٨٦] ألـوانـــــــا
فـــلـــو أن مـــاء الأرض طـــرًّا شـــربـــتـــه
لمــا نـــالـــني ريٌّ ولا زلت ضـــمـــآنـــــــا

وكلما تدانت المرابع بينه وبين المحبوب بغية السلوى، زاده القرب شجونا وحزنا، فأمره غريب محير: فلا البعد كان له شافيا، ولا القرب كان له ناسيا، كتب عليه العذاب والحرمان، ففي بعده شوق تقطعت له مهجته، وفي قربه زيادة لهذا العذاب، يتطلع للحبيب ويتلهف للقائه، ينادى فؤاده المكلوم بآلام البعد واللقاء، فقد عز الدواء واستفحل الداء، وتملكه الأسى، فامتلأت عيناه دمعا، ولم يبق أمامه إلا الصبر مادام التشكي لم يجد نفعا: [٤٨٧]

فـــإن قـلـت يـومـا قـد تـدانت ديـارنــــا
لأسـلـو عـنـهم زادني الـقـرب أشـجـانـا
فـمـا الـقـرب لي شـاف ولا الـبـعـد نـافع
وفي قـربـنـا عشق دعـانيَ هـيـمـانــــا[٤٨٨]
وفي بـعـدنـا شـوق يـقـطّع مـهـجـتـــي
كـتـقـطـيع بيت الـشـعـر لـلـنظم مـيـزانـــا
فـيـــزداد شـــوقي كـلـــمـــا زدت قـــربـــة
ويـــزداد وجـدي كـلـمـا زدت عـرفـانـــا
ويـــاكَـــبِـــدي ذوبي اسىً وتحـــرّقـــــاً
ويـا نـاظـري لازلت بـالـدمع غـرقـانـا

تاه الأمير وهام في خضم هذا الحبيب حتى ضاعت نفسه، فأصبح يسائل عنها كل غاد ورائح، يتنسم أخبارها، يبحث عن ذاته الضائعة في هذا العالم الروحي الذي حلقت فيه نفسه بأجنحة الشوق، فلم تعد ترى منه إلا صورة المحبوب، ولا تبغي من

الدنيا إلا الوصال، ومن أجل ذلك يعمد إلى مقايضة من يجمعه بهذا المحبوب بنفسه، فيبيع له هذا الجسد الفاني يستعبده أبد الدهر، أما تلك الروح فلا سلطان عليها لغير الحبيب ولا جرم أنها تجارة رابحة ومكسب ثمين في نظر الشاعر: [٤٨٩]

أسائل عن نفسي فإني ضللتها

وكان جنوني مثل ما قيل أفنانا

أسائل من لا قيت عنيَ والهاً

ولا أتحاشاهم رجالا وركبانا

أقول لهم من ذا الذي هو جامعي

ويأخذني عبداً مدى الدهر حلوانا

ويبلغ به الحنين والشوق إلى الأراضي المقدسة الطاهرة أين انبثقت الرسالةوظهر النور والحق مقتفيا آثار القوم في ذكرهم لهذه البقاع الشريفة التي تدل في ظاهرها على شيء يدركه القارئ، ولكنها تحمل في باطنها معاني أخرى لا يفقهها إلا الصوفي الذي ارتبطت روحه بهذه الأماكن، فلا يعرف له موطنا غيرها، ففيها نشأ وبين وديانها وفيافيها اشتد عوده وترعرع، يربطه الحنين دوما إليها، متى بان عنها فلا غرو أن يذكرها الأمير وغيره من الصوفية متى اشتد بهم الحنين والشوق، يلثمون أركانها وأحجارها ويتمرغون في تربتها لا حباً فيها" وإنما هي رمز حب صادق، وهوى مبرح، وعاطفة جياشة صادقة، إنها رمز للحبيب الأول والأخير وهوالله، وإن العاشق الصادق لا يلثم هذا الجدار أو ذلك، لا للذاتهما، بل حبا بمن سكن فيها، كذلك يفعل الصوفيون". [٤٩٠] ويعجب الشاعر في نهاية قصيدته من هذا الحب والهيام فالمتعارف عليه أن الإنسان يحب غيره، لكن الأمر هنا اختلف بالنسبة لشاعرنا، فما محبوبه إلا نفسه، لم يعشق سواها، فهو الحُب والمحبوب والحب، وما العاشق والمعشوق سواه، وتلك جوهر نظرية الوجود التي آمن بها عبدالقادر -بكل تحفظ-: [٤٩١]

ومن عجب ماهمتُ إلا بمهجتي

ولا عشقتْ نفسيَ سواها، وماكانا

أنا الحب والمحبوب والحب جملة

أنا العاشق المعشوق سرا وإعلانا

وقد إتخذ الصوفية من بعض الآيات القرآنية دعامة يقيمون عليها مذهبهم في هذه النظرية كقوله تعالى" الله نور السموات والأرض- سورة النور آية ٣٥" وقوله تعالى" فأينما تولوا فثم وجه الله -سورة البقرة الآية ١١٥ " ولعل الحلاج كان أول من نادى بهذه النظرية قبل ابن عربي، إلا أنها نسبت إلى هذا الأخير، فأوفاها شرحاً في" فتوحاته"و" فصوصه" ومؤداها "أن الموجود كله حقيقة واحدة، تمثل لحواسنا متكثرا في موجوداته الخارجية، وإن بدا لعقلنا ثنائيا يتألف من الله وعالم الأعيان، إنه حقيقة واحدة هي موجودة بذاتهاوهي العالم من حيث هي موجودة بذاتها[٤٩٢] " أي أنه يقرر أن الحياة تسوى في كل شيء، وأن العالم " يتكون من ذرات روحية تحتوى كل ذرة منها على ما لانهاية من التغيرات، وهذه التغيرات أساس بما يسميه هو الخلق الجديد، ومن ثم فليس الموت انخراطا في العدم بل هو انتقال من صور إلى أخرى دون وقوع في مذهب تناسخ الأرواح، وسريان الحياة في كل شيء مرتبط عنده بتأثير الأسماء الإلهية: [٤٩٣]

فوحدة الوجود إذن" يراد بها أن الحقيقة الوجودية واحدة، وأن الكثرة الظاهرة مظاهر وتعينات فيها، أي أن " الخلق" الظاهر هو " الحق " الباطن[٤٩٤] " أو بمعنى أدق أن الخالق والمخلوق شيء واحد في الجوهر وإن اختلفا في المظهر والصورة.

والقول بهذه الوحدة التي ترى في الإنسان أو العالم صورة لله، هي السبب الرئيس الذي تذرع به خصوم ابن عربي فهاجموه، واتهموه بالكفر والإلحاد[٤٩٥] " حتى وصل بعضهم إلى حد رميه بالكفر حينا، والزندقة أحيانا" ويخيل الينا أن أولئك الذين يسمون بالمتصوفة فريقان، فريق سلك مسلك الشريعة الصافية، وفريق جنح عن الصراط وزعم أن جنوحه لون من ألوان التصوف، ولا شك أن الفريق الثاني هو الذي

قال بالحلول، والاتحاد، وبوحدة الوجود فكفر، وكان يظهر شيئا هو التقوى، ويبطن شيئا هو الكفر، وتقويض كل شرع . . . أو أن أفراد الفريق أصيبوا بمس من الجنون، فراحوا يهذون ويخلطون في كلامهم، فيزعمون أنهم اتحدوا بالإله أو أن الإله اتحد بهم، وأنهم أصبحوا جزءا واحدا[٤٩٦] .

وممن تصدى لهذه النظرية وغيرها وانتقدها انتقادا مرا، نذكر شيخ الإسلام ابن تيمية الذي قال: " ما تضمنه كتاب فصوص الحكم وما شاكله من الكلام فإنه كفر باطنا وظاهرا، وباطنه أقبح من ظاهره، وهذا يسمى مذهب أهل الوحدة وأهل الحلول، وأهل الإتحاد، وهم يسمون أنفسهم المحققين[٤٩٧] " .

أما جواد المرابط فيرى أن فكرة وحدة الوجود" نظرية فلسفية ضد الشرك بل ضد الكثرة، وهي مسألة من ناحية ثانية لا علاقة لها بالدين، وكل ما فيها أنها تدل على الوحدة في نظام العالم، وانسجام نواميسه، والحياة مهما يكن فيها ما يوحدها ويجعلها في وجود واحد، فإن فيها من الأسرار ما لايصل إليه العقل، ليجعلها كلها خاضعة لفكرة واحدة . . . وإن الإنسان أعجز من أن يجمع العالم الغامض وخفاياه المجهولة في نظرية واحدة تعتبر وحدها أنها نهائية[٤٩٨] " وهكذا أثار ابن عربي بنظريته هذه موجه قوية من الخلاف وخصومة شديدة بين العلماء والفقهاء، فتباينت الأراء بينهم معارضة ومخالفة، ومؤيدة مناصرة، لكن الواقع أن هذا الأمر لم يكن وقفا على ابن عربي ونظريته فحسب، بل ان المتصوفة جميعا" رموا بسهام النقد والطعن، واختلفت الآراء حولهم تأييداً وانكاراً، ويرجع ذلك إلى أنهم يسلكون في تقرير معتقداتهم طريقة تخالف المألوف، مثل علماء الكلام في استنادهم إلى الآثار من القرآن والسنة في تقرير المعتقدات وان اختلفوا في مدلول هذه الآثار، ولا هم كالفلاسفة الذين ينكرون كل ما عدا العقل، طريقة لتقرير معتقداتهم، وإنما طريق الوصل إلى الله، وتحصيل المعرفة عندهم هو الكشف والأشواق . . . يستعملون الذوق والروح والوجدان سبيلاً إلى معرفة الله، ولا يتقيدون بظاهر الشريعة، ويفسرون الآثار تفسيرا باطنا يخالف ما يدل عليه ظاهرها، مما جعل بينهم

وبين الفقهاء بوناً شاسعاً من الخلاف تمتلئ بأحداثها الكتب[٤٩٩] " وأياً كان الأمر والاختلاف فإنه ليس لنا فيه أي حكم ولا نملك في هذا إلا قولنا يفصل الله بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون فتلك مسألة تهم المشتغلين بعلم التصوف والفقه .

نعود بعد هذه الفسحة الصوفية إلى شاعرنا وقصيدته التي عنونها محقق الديوان" بوحدة الوجود[٥٠٠] " تأكيدا منه على أن الأمير كان يؤمن بهذه الفكرة في تصوفه باعتباره تلميذ ابن عربي .

فهذه الأفكار التي وردت في الأبيات قادت الشاعر ولا شك إلى متاهات خطيرة ، ودروب صعبة ، يحتار المرء أمامها ولا يجد تفسيرا مقنعا سوى أنه " كان يطلق الآراء والأحكام ، ويلقي الكلمات بدون أن يعي أثرها وتأثيرها في السامع ، ودون أن يشعر بضررها وتأويلها[٥٠١] " ولا ريب أنه قد اندفع في هذا ، مقلداً تارة ومتأثراً أخرى بسابقيه من القوم ، فقد اندمج في حبه لمولاه ، وتسامت روحه إلى مراقٍ وأحوال فأراد أن يعبر عن ذلك ، فخانته العبارة ، وتاهت به الفكرة ، فوقع في المحظور ، وأصبح قوله يؤول تأويلا ربما لم يعتقده الأمير البتة ، حيث يقول مدافعا عن نفسه في هذا المجال " واحذر أن ترميني بحلول ، واتحاد ، أو امتزاج ، أونحو ذلك فإني بريء من جميع ذلك ، ومن كل ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله ، فإنني فهمت منهما ما فهمت أنت وزدت عليه[٥٠٢] " كما حذر أولئك الذين يؤولون كلامه على نحو لم يقصده بقوله : "إياكم ثم إياك أن تتوهم وتتخيل فيما أذكره في هذا الموقف تشبيها عقليا أو تمثيلا ، أو حلولا ، أواتحادا ، أو سريانا ، أو امتزاجا أو ارتساما ، أو اتصالا ، أو انفصالا ، أو مقابلة ، أو مقارنة ، أوتقديما ، أو تأخيرا ، أو قبلية ، أو بعدية ، أو كيفاً ، أو كماً ، أو معيةّ ، أو أين ، أومتى ، أو ترتيبا ، فمن توهم شيئا من ذلك ، سقط في مهواة من التلف على رأس أمه[٥٠٣] " .

ومن هنا فإن عبدالقادر كما يقول الدكتور الركيبي" لو رجع إلى قصائده لما رضي عنها ولأعاد النظر في صياغتها من جهة ، ولبدل من نظرته فيها من جهة أخرى حتى

ينفي عنها هذه الخيالات المضطربة، والتهويمات المشطة، وحتى يصلح من أخطائها العروضية الكثيرة التي تقربها من النثر في لغتها وصورها[٥٠٤] " على أن هناك حقيقة هامة لا تخفى على الدارس هي أن غزل الأمير الإلهي وحلوله واتحاده لا تخرج عن كونها تقليداً بحتاً وآياتنا في ذلك حياة الأمير وسيرته التي تعرضنا إليها، فهو إنسان متدين، دافع عن الإسلام بسيفه وقلمه، وجاهد الكفار حرباً وقولاً، واعتبر التصوف والعبادة إذا لم يقرنا بالعمل مجرد لعبة، ودليله في ذلك الكتاب والسنة، حيث" يرفض في نومه، قبول ما يرفضه في صحوه وعلمه[٥٠٥] " وقد أورد له محقق الديوان هذه الأبيات في هذا المعنى، أرسلها إلى كاتبه ابن رويلة يبين له فيها التصوف الحق والعبادة الكاملة: [٥٠٦]

يـاعـابـد الحـرمـين لـو أبـصـرتـنـا
لـعـلـمـت أنك في الـعـبـادة تـلـعـب
من كـان يـخْـضب خـده بـدمـوعه
فـنـحـورنـا، بـدمـائـنـا تـتـخـضـب
أو كـان يـتـعب خـيـلـه في بـاطـن
فـخـيـولـنـا يـوم الـصـبـيـحـة تـتـعـب
ريح الـعـبـيـر لـكم ونـحن عـبـيـرنـا
رهج الـسـنـابك والـغـبـار الأطـيـب

ومهما يكن من الأمر، فإننا نعتقد أن الشاعر-على الرغم من هذا-كان يلتمس هذه السبل باعتبارها تؤدى إلى الإيمان، والمحبة، والمعرفة، والتوحيد وإن تعددت طرقها وتباينت مناهجها في الوصول إلى الحقيقة المجردة، حقيقة معرفة العبد لخالقه، والإذعان له بالطاعة والخنوع، والإقرار له بالوحدانية والربوبية، وما نشك أن شاعرنا كان يرمي إلى غير هذا، وحجتنا في ذلك ما تركه من قصائد صوفية، كان أبعد فيها عن التكلف والتعسف في القول، فهي تعبير عن إيمان قوي وعميق بالمولى تبارك وتعالى والرضا بالقدر خيره وشره.

يقول في قصيدته "غيب[٥٠٧] " التي يتعرض فيها لمصير الإنسان وما ينتظره يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فإما فوز ورضوان، وإما خسران وغضب من الله، ففيها خنوع وتذلل لله، ورجاء في رحمته وعفوه، تمثل شخصيته الدينية التي يمكن وصفها بإيمان العوام، فيها صدق العقيدة، وبساطة التعبير عنها، وتتجلى هذه الصفة إذا وازنا بينه وبين شعراء الزهد والتزاهد من أمثال أبي العتاهية، وبينه -مرة أخرى- وبين شعراء الإسلام الحديث، فالنوع الأول يثير فينا التساؤل حول الصدق: أهو زهد أم تزاهد؟ والنوع الأخير يثير فينا تساؤلا: هل إثارة اعجابنا به نابعة من صدق عواطف الشاعر أم من قدرته على الإبداع الفني ؟ ويجيء شعر عبدالقادر في موقف وسط بينهما يحمل الكثير من الصدق والأصالة: يقول الأمير[٥٠٨]:

أيا نفس إن الأمر غيبٌ فما تدري
بماذا يكون الكشف في آخر العمرِ
فإما بشير باللقاء وبالرضى
على طول عتْبِ بالزيارة للزَّور
وإما بضد بل ولا كان ضد ذا
تعالى إلهي عن عذابي وعن ضري
وليس تَلافٍ بل ولا ردُّ فائتٍ
هنالك لا يجدي سوى الجبر للكسر
أليس لهذا الخطب ويحك شاغل
عن الأهل والأصحاب زيد وعن عمرو
ايا سامع الشكوى ويادافع البلى
ويامنقذ الغرقى ويا واسع البر
تجهت لك وجهي بأكرم شافعٍ
محمدٍ المبعوث للعبد والحر
لترسلَ لي عند الوفاة مبشراً

تلكم كانت أهم المواضيع التي تعرض لها شاعرنا في التصوف، ولا بأس ونحن نتحدث عن هذا الجانب الديني الروحي أن نعرض لمدائح الأمير النبوية ومقطوعاته التي أنشدها حبا واشتياقا لمهد النبوة وربوع الرسالة، وصاحبها، أو ما يسمى "بالحجازيات".

٢ - المدائح النبوية:

تعتبر المدائح النبوية، فن من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهي مفعمة بالصدق والإخلاص[٥٠٩]"، وقد وجد فيها الشعراء ملجأ وملاذاً يسكنون اليه، تدفعهم إلى ذلك الحالة التي آل إليها المسلمون الأبرار يستلهمون من سيرتهم العطرة العبر، وينفسون عن أنفسهم ما يحسونه من ظلم واضطهاد، يهربون بأفكارهم من أمام هذا الواقع المرير، ويحنون إلى ذاك العهد المجيد الذي كان المسلمون فيه أسيادا أقوياء، يمنون الأنفس الجريحة بآمال الخلاص وقرب الفرج، وانبلاج الصبح الذي طال انتظاره، ولذلك يلاحظ "أن عصر ازدهار المدائح النبوية هو عصر الحروب الصليبية وغزو التتار للشرق الإسلامي، ثم حقبة انتهاء الحكم الإسلامي في الأندلس، و لذلك مغزاه"[٥١٠]

والأمير عاش كثيرا من المحن وعايشها، فرأى بأم عينيه الاستعمارالبغيض يدوس أرض بلاده، فقاومه إلى أن أذن له الله بإلقاء السلاح، فانتقل سفيرا مغربيا إلى الشرق، ليرى الهيمنة والضعف فيه صورة لما تركه في المغرب، فالمسلمون منقسمون وأعداؤهم يتربصون بهم، فحز ذلك في نفسه، وعز عليه الصمت، فانبرى بقلمه يوظفه مقام السيف.

وهكذا كانت مدائح الأمير النبوية متنفسا له، وتعبيرا عن واقع مرير، تغلب عليها نظرة صوفية، كما تكشف بوضوح عن نفسيته المؤمنة بالله، المحبة المطيعة لرسوله وأهله وصحبه الكرام.

ففي مقطوعته" ياسيدي يارسول الله[٥١١] " التي اتخذت من الرسول الكريم محورا لها دعاء وتوسلا ومدحا، لأنه يمثل السند والرجاء، والحصن والمدد والذخيرة عند الاحتياج، والعدة عند الخطر، فهو الشفيع الرؤوف الرحيم: [٥١٢]

يـا سـيـدي يـا رسـول الـله يـا سـنـدي

ويـا رجـائي ويـا حـصـني ويـا مـددي

و يـا ذخـيـرة فـقـري يـا عـيـاذيَ يـا

غـوثي ويـا عـدتي لـلـخـطب والـنـكـد

يـا كـهف ذلي ويـا حـامي الـذمـار ويـا

شـفـيـعـنـا في غـد أرجـوك يـا سـنـدي

فليس للأمير شفيع غير المصطفى، لذلك يسعى دوما لرضاه بالعمل الصالح، واتباع سنته بتذلل وحب لعله ينال الحظوة فيكون مع الذين رضي الله عنهم، وذلك هو الفوز العظيم: [٥١٣]

لا عـلـم عـنـدي أرجِّـيه ولا عـمـل

أمـام نجـواي من هـدى ومن رَشَـد

أبـغـي رضـاك ولا شيءَ أقـدمـه

سـوى افـتـقـاري وذلي واصـفـرار يـدي

إن أنت راضٍ فـيـا فـخـري ويـاشـرفي

مـاذا عـلـيَّ إذا والـيت من أحـد

ويرى الشاعر أن زيارة قبر الرسول والتشرف برؤيته فوز يتوق إليه كل مؤمن مسلم، ونعمة من نعم الله الكبرى يمن بها على عباده، فلا ينالها إلا السعيد المحظوظ، ولا يحرم منها إلا الشقي التعيس، ولذلك فهو دائم التساؤل عن هذا الموعد المبارك الذي ستكتحل فيه عيناه برؤية الحبيب المصطفى، والوقوف بين أيديه في رحاب روضته المشرفة، فينقلب نحسه سعدا، وشقاؤه سعادة، فكتب معبرا عن ذلك إلى صاحبه ابن

رويلة وهو لا يزال أسيرا بأمبواز، هذه المقطوعة: (٥١٤)

أُخيَّ نـلـتَ الـذي قـد كـنت تـطـلـبـه
وفـزت دونـي بمـا تـرجـوه ومـا تـرغـبه
وسـاعـدتك الـلـيـالي لا شـقـيت فـدُم
قـريـر عـين بـوصل لـيس تـسـلـبـه
قـد طـاب في طـيـبـة الـغـرَّا مـقـامـكمُ
جـوار مـحـبـوبـنـا، من كـنت تـرقـبـه
يـاهل تـرى مـثـلـمـا فـزتم أفـوز؟وهل
تـعـلـو سعودي عـلى نـحـسي فـتـقـلـبـه؟

والأمير كثير التوسل بالرسول، ونادرا ما يختم قصائده بغير ذلك، وهي عادة جرى عليها شعراء هذه الفترة وخاصة منهم شعراء المغرب بشكل واضح(٥١٥)، يقول بعد أن استوفى الغرض من احدى قصائده: (٥١٦)

بـجـاه خـتـام المـرسـلـين مـحـمـد
أجلّ نـبـي كل مـكـرمـة حـوى
عـلـيـه صلاة الـلـه ثم سلامـه
وآل، وصـحـب مـاسـرى الـركب لـلـوى

ويتوسل الأمير بجاه الرسول عند ربه وهو يدعو لجنده بالنصر في إحدى قصائده بقوله:

يـارب لا تـتـرك ضـعـيـفـا فـيـهـم
يـارب واشـمـلـهم بـخـيـر تـشـمـل(٥١٧)
مـتـوسلا مـولاي في ذا كـلـه
مـتـشـفـعـا بـشـفـيع كل مـكـمِّـل
وجَّـهتُ وجـهي في الأمـور جـمـيـعـهـا
لمحـمـد غـيث الـنـدا المـسـتـرسـل
صـلى عـلـيه الـلـه مـا سحَّ الحـيـا

والآل مــا ســيف ســطــا في الجـــحــفل

ولا يقتصر الأمير في توسلاته وتضرعه على الرسول وحده، بل نراه يتوسل أيضا بالصحابة الكرام الذين وصفهم المولى بقوله: " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا–سورة الفتح، آية ٢٩" فنراه يستدعي في إحدى قصائده أسماء ستة وثلاثين من أهل بدر، مامن منهم إلا له مقام معلوم في صدق الجهاد، وحسن البلاء، وقوة الإيمان دون أن ينسى كعادته استحضار مثالية الرسول لأنه البدر والآل والأصحاب هم الكواكب[٥١٨]:

وجــهت وجــهي أنِـلْـني مـا دعـوت به
بــأهل بــدرٍ حــمــاة الــدين أركــانــا
أعــني الألى صــرَّح الحــفّــاظ ذكــرهم
بــإسـمـهم تــاركـا من خــلـفـهم بـانـا
بــقـطـبـهم أحـمـد المخـتـار من مـضـر
وســيــد الخــلق أملاكــا وإنــســانــا

ثم يسترسل في ذكر أسمائهم الواحد تلو الآخر يقول:[٥١٩]

كـذا خـلـيـفـته الـصـديق مـلـجـأنــا
وأعـظم الـنـاس إيمـانـا وإيـقـانــا
وبـالمـكـنَّى أبي حـفص الـذي افـتُـتِـحتْ
به المـغـالق حـتى صـعـبـها دانــا
وبـالخـلـيـفـة ذي الـنورين ثـالـثـهـم
أعـني بـذلك عـثـمـان بن عـفـانــا
وبــالإمــام أخي المخــتــار ذاك عــلي
من في الـوغى بـالـعدا تـلـفـيه فرحـانـا
وحــاطب وبلال ثم حــمــزة ذا

عم النبي كريم ساد قحطانا
إني توسلت يارب الأنام بهم
أرجوك فضلا وغفرانا وإحسانا
ثم الصلاة على المختار سيدنا
ماصارت الشيب يوم الحرب شبانا

٣ - الحجازيات:

لم ينس شاعرنا في شعره الديني تلك البقاع الطاهرة المقدسة التي أنجبت هذا النبي الكريم، فأفرد لها الأبيات والمقطوعات تشوقا وهياما بأهل تلك الربوع وبمن سكن أرض الحجاز"وإذا كان شعراء المديح النبوي يذكرونها ويفتنون بها كالصوفيين -ومنهم الأمير- على آثارهم يتغنون حبا بالرسول وبمن خلق الرسول، وجعل مكة مهبط الوحي الأول، وموقع بيته العتيق[٥٢٠]" ذلك أن الحديث عن بطاح مكة، ويثرب، وزورد، العقيق، ولعلع، وسلع هو الحديث عن رسول الله (ص)، لأن هذه الأماكن قد ارتبطت ذهنيا وروحيا بحياة الرسول، ففيها نشأ وترعرع، وبين وديانها وشعبها شب، ومنها انتشر النور الإلهي والرسالة الخالدة ومنها وإليها كانت غزواته وهجرته، فلا جرم إذن أن يتخذها الشعراء رموزا للحديث عن الرسول، وعن الحب الإلهي وغيرهما، فالشاعر لا يجد مندوحة عن الغزل، لأنه يعبر عن التطلع إليها، وأيضا فيه تقليد للقصيدة العربية في مطالعها الغزلية القديمة[٥٢١]".

والأمير من خلال ما مر بنا ذاق حلاوة زيارة هذه البقاع أثناء رحلته الأولى مع والده لأداء فريضة الحج، فتمكن حبها في قلبه، وكثيرا ما كان يمني نفسه بالعودة ثانية، إلا أن انشغاله بأمور الجهاد والإمارة حال دون ذلك، ولكن لم ينسيانه قطعا التفكير فيها، وتحقق رجاؤه بعد فك أسره، هذا الأسر الذي فجر عاطفة الأمير شوقا، وحزنا، وألما، بثها بين ثنايا قصيدته"عذاب الأسر" فيها تصوير حي وصادق لهذه النفس المعذبة

المقهورة، التي أرغمت على فراق الأحباب وجعل بينها وبينهم سدا فاصلا، فغادروه بقية باقية لا روح فيه ولا أمل: [٥٢٢]

لم يبق يوم البين والهجر الذي
خُلقا لتعذيب الأحبة - مسعفا
إلا صبابته وجسماً قد غدا
ملقى كشنٍّ بالفلا لن يُخصفا

فتأججت نار الفراق في فؤاده، وفاضت عيناه دمعا تذرفه على الخد شوقا وحرقة، هجره النوم فلا يرتد إليه جفنه، وكأن عينيه فيهما قذى، فحرم من رؤية طيف الأحبة، مما زاده عذابا وألما، فهو أشبه بلديغ لسعته حية فسرى سمها في أوصاله، فأمسى يتقلب في فراشه، يكابد الأوجاع والآلام: [٥٢٣]

زفرات قلبي جمر نار أججت
منه دموع العين فاضت ذُرَّفا
بمحاجر من حاجرٍ[٥٢٤] أقذاء قد
طردت ضيوف الطيف جاءت طوفا
هل من منام للديغ بمرة
فضلاً عن المرات أو هل من غفا

ثم يعرج على ذكر تلك الأماكن الشريفة، فمن حاجرإلى سلع، إلى العقيق إلى طيبة، ويربط بينها وبين حالته النفسية المعذبة بنار البين، فما إن يومض برق سلع حتى تفيض نفس الشاعر أسفا وحسرة، فكأن هذا البرق سيف صارم يفعل في أحشائه فعل السم، فما ذلك البرق والرعد إلا زفرات الشاعر، وما هذه الأمطار إلا دموعه التي يذرفها شوقا وألما فتحاكي حالته بأصدق وصف، فاختلط دمعه بدمه، فشابه العقيق احمرارا، تصويراً من الشاعر لشدة ماهو فيه، ومدى تعلقه بهذه الأماكن وساكنيها: [٥٢٥]

مـــا إن تـــألـق بـــرق ســـلـعٍ[٥٢٦] والحـــمى
حـــتى تـــفـيض الـــنـفس مـــنه تـــأسـفـــا
وأراه ســـيـــفـــاً صـــارمـــاً وسط الحـــشـــا
فـــعل الأفـــاعي أو شـــهـــابـــاً مـــا انـــطـــفـــا
يـــحـــكي زفـــيـــري رعـــده، وريـــاحـــه
وبـــوبـــلـه حـــاكى دمـــوعي الـــوكَّـــفـــا
وإذا جـــرى ذكـــر الـــعـــقـــيق وأهـــلـــه
أجـرى الـعـقـيق[٥٢٧] تـأسـفـاً وتـلـهـفـا

ولم يجد شاعرنا أمام هذا، إلا مناجاة أهل هذه البقاع مسترحما مستعطفا متوسلا إليهم أن يرحموه من هذا العذاب، فقد كفاه مانالـه من صدود وهجران وبعد، وعذره أنه لم يكن يدري ما الهوى قبل أن يعرفهم، وربما يشفع له عندهم أن هواه صادق فطري لم يتكلف فيه قط، فليذكروه رحمة بحاله، فقد أشرف على الهلاك وسط أعدائه، اجتمع عليه عذاب الأسر، وشماتة الأعداء، وطول الفراق: [٥٢٨]

يـــاأهل طـــيـــبـــة مـــالـــكم لم تـــرحـــمـــوا
صـبـاً، غـدا لـنـوالـكم مـتـكـفـفـــا[٥٢٩]
لا تجـــمـــعـــوا بـــين الـــصـــدود وبـــعـــدكم
حـسـبي الـصـدود عـقـوبـة فـلـقـد كـفى
لم أدر شـــيـــئـــا قـــبل مـــعـــرفـــة الـــهـــوى
حـــبي لـــكم مـــا كـــان قط تـــكـــلـــفـــا
مـــا بـــالـــهم يـــاصـــاح لم يـــتـــذكـــروا
صـبـا كـئـيـبـا في المحـبـة مـدنـفـــا[٥٣٠]
مـــا: قـــيل ذاك أســـيـــرنـــا وقـــتـــيـــلـــنـــا
بـــين الـــعـــوادي والأعـــادي مـــثـــقـــفـــا[٥٣١]

و لطالما حاول العدو أن يصرف نظر الأمير عن حب هده الأماكن وأهلها، وتحويل وجهته عنها وعنهم، إلا أنه أبى وأصر، فقد سيطر هواهم عليه، وتملكه فلن يولي شطر قلبه غير قبلتهم، حتى ولو كان فيه هلاكه وحتفه، ولن يرضى عن حبهم بديلا لأنه لا يملك من أمر هواه شيئا، فهذا قدره وليكن مايكن: (٥٣٢)

قلبي الأسير لديكم والجسم في
أسر العداة معذباً ومكتّفا
حاشاكم لجميل ظني فيكم
أن تشمتوا فيَّ العدو المرجفا
ولطالما لام العذول بحبكم
وأطال عتْبي ناصحاً ومعنفا
ولكم سعى كيما يصرّف وجهتي
عن وجه ودكم ولم يك مصرفا
ويود لو أني سلوت هواكم
فيكون لي خلاً وفياً منصفا
قلب الشجي كما علمتم أنه
لا ينثني عن حبكم متخوفا
يبغي الوصال ولو تمزق تالفاً
ويلذ أن يلقى العذاب ويتلفا

وللشاعر مقطوعة أخرى في مناجاة أحد أنشدها وهو على وشك الفراق والعودة إلى الأهل والديار، مبارحا البقاع المقدسة، تفوح حبا وشوقا وحنانا، فما كاد ميعاد السفر يحل حتى خارت قوى الشاعر، وخانته عباراته وعبراته، فلم يجد إلا دمعا في العين، ونارا في القلب، ونفسا ضعيفة لا تحتمل البعد والبين، فتمنى الرحيل قبل الرحيل، يناجي مولاه ويشكوه ضعفه وقلة حيلته، وثقل حمله الذي تنأى عن حمله العصبة أولى القوة، فما بالك بالفرد الواحد الضعيف: (٥٣٣)

تــــذكـــرت وشك الــبـــين قـــبل حـــلـــولــه
فـجـادت عـيـوني بـالـدمـوع عـلـى الخـــــد
وفي الـــقـــلـب نـــيـــران تـــأجج حــــرهــــا
سـرت في عـظـامي ثـم صـارت إلى جـلـدي
ومــــاليَ نـــفس تـــســـتـــطـــيع فـــراقـــهـــــم
فـيـالـيت قـبل الـبـين سـارت إلى الـلـحـد
إلـى الـــلـه أشـــكـــو مـــا ألاقي من الـــنـــوى
وحــمــلـي ثــقــيـل لا تــقــوم به الأيــــــدي

وكان عبدالقادر يظن أن أيام النحس والشقاء قد ولت دون رجعة حين طاب له العيش والمقام في طيبة، وحلا له المستقر، ولكن أتاه النحس من حيث لا يدري، فقلب سعادته شقاء، وفرحه حزنا، وعادت ليالي العذاب أشد مرارة فأمسى الشاعر حائرا يهيم على وجهه، تتنازعه الأشواق، فمرة هنا وأخرى هناك، يجوب المكان كله لعله يشبع نهم النفس الجائعة، ويروي عطش الروح الظمأى المتلهفة إلى هذا البلد الأمين وصاحبه الكريم (ص): [٥٣٤]

بـــطـــيـــبـــة طـــاب الـــعـــيش ثم تـــمـــرَّرتْ
حلاوته، فـالـنـحس أربى عـلـى الـسـعـد
أردد طـــرفي بـــين وادي عـــقـــيـــقـــهـــا
وبـــين قـــبـــاهـــا ثم ألـــوي إلـى أحـــــد
مـــنـــازل من أهـــواه طـــفلاً ويـــافـــعـــاً
وكـــهلاً إلـى أن صـرت بـالـشـيب في بُـرد

ونخلص القول بأن هذا الجانب- جانب الشعر الديني عند عبدالقادر- من الخصوبة بمكان وهو يكشف عن احساس صادق وفكر عميق وشفافية نفس تتطلع إلى رحاب أبعد بكثير من الواقع الضيق الدميم.